سلسلة النبي وأهل بيته قدوة وأسوة

٦



سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي

الإمام السجاد عليه السلام

قدوة وأسوة



الإمام السجاد عليه السلام

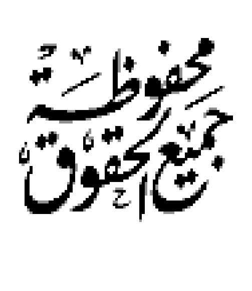
قدوة وأسوة

سلسلة النبي وأهل بيته قدوة وأسوة - ٦



سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي





هوية الكتاب:

* الكتاب: الإمام السجاد عليه السلام قدوة وأسوة.

* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

* الطبعة: الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

* الناشر: مركز العصر للثقافة والنشر، لبنان، بيروت. (alasrr@gmail.com).

دار كميل للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، طريق المطار،

ص.ب: ٧٩٥٧/ ١١ (dar_komail@yahoo.com).

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

تمهيد

وأنا أقرأ حياة الإمام السجاد عليه السلام، حاولت أن أرسم في ذهني صورة متكاملة عن شخصيته، وما كدت أنتهي من ذلك حتى تذكرت آيات الذِّكر التي ترسم صورة عباد الله الصالحين.

عندما نتدبر في تلك الآيات يوسوس الشيطان في أنفسنا؛ هل هي تُحدِّثنا عن بشر أمثالنا؟ أم عن ملائكة خُلقوا من نور قدرة الله؟ أم أنها روائع أدبية؟. حاشا لله تعالى أن تكون في كلمات الله ذرة من المبالغة. أوَلَيْسَتِ المبالغة كذباً؟ والكذب من الباطل الذي لا يأتي كتاب الله الكريم؟!. ونحن نعرف الحقيقة تماماً حينما نتلو قصص الأنبياء والأئمة، وندرك أن تمثيل تلك الصورة المشرقة التي تعكسها الآيات عن حياة عباد الله الأبرار أنه حقيقة واقعة، ونَفهم أننا مدعوُّون لاتِّباعهم فيها.

وفي هذا بالذات تكمن حكمة الولاية؛ حيث أمرنا الله أن نبتغي الوسيلة إليه سبحانه عبر ولاية أوليائه، وأن نطلب منه الهدى كما هدى الذين أنعم عليهم، وأن نركع مع الراكعين، ونكون مع الصادقين، ونرجو الالتحاق بركب الصالحين.

إن ولاية أولياء الله تجعلنا نَتَلَمَّسُ سيرة حياتهم النَّيِّرة، وحين نتعرَّف عن كثب عليهم نتحصَّن ضدَّ وساوس الشيطان الذي يوحي إلى أوليائه أن تمثيل صفات القرآن هذه مستحيل، أو أنها إنما ذُكرت

تشجيعاً، أو هي روائع أدبية بليغة.

إن هذا الوسواس أعظم مكائد الشيطان في إغواء البشر عن معارج الكمال الإلهي، ولا يقضي عليه شيء مثل دراسة حياة الأنبياء والأئمة والصِّدِّيقين باعتبارهم بشراً أمثالنا أنعم الله تعالى عليهم ورفعهم إليه مقاماً محموداً.

ومنذ ثلاث وعشرين عاماً أنعم الله عليَّ بالتأليف عن حياة الأئمة الهداة، عبر مناسبات نادرة. لذلك لم أوفق لإكمال سلسلة قدوة وأسوة حول النبي وأهل بيته الكرام عليهم السلام.

واليوم حيث وفَّقني الله سبحانه لكتابة تدبُّراتي في القرآن، والتي سميتها (من هدى القرآن)؛ أعود إلى هذه السلسلة عسى الله تعالى أن يُوَفِّقَنِي هذه المرة لإتمامها. ولكن كنت أتساءل: ماذا أسمّي هذه السلسلة التي بقي منها أربعة أجزاء من أصل أربعة عشر جزءاً. وأخيراً وقعت على اسم مناسب وهو: (النبي وأهل بيته قدوة وأسوة). وحيث إن القرآن هدى للمتقين، وحياة الأئمة تمثيل للقرآن فقد جاء الاسم مناسباً لذلك، كما أنه تناغم مع اسم كتابي (من هدى القرآن). ولكن ازدادت حيرتي عندما وقفت على شاطئ بحر زخّار ماذا اغترف منه وأُقدِّمه للإخوة القُرَّاء، وقد كتبتُ من المذكرات حول حياة الإمام عليه السلام ما تكفي لكتابة مجلد كبير، بيد أني حكمت على نفسي بالكتابة المختصرة، وهنا يكمن سبب حيرتي ماذا أختار من حياته التي لا يتسع قلم مثلي لاستيعابها.

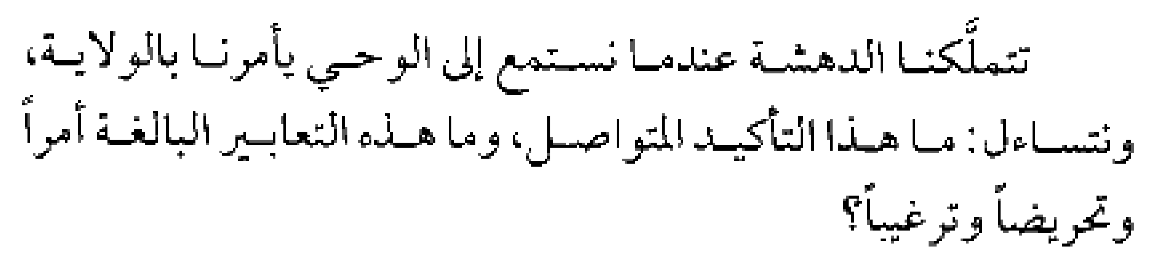
وهكذا أستميحكم عذراً لو وجدتم قصوراً أو تقصيراً واسعَين في الحديث عن حياته الكريمة، واعتبروا هذه الدفاتر مدخلاً إلى الكتب المفصلة عن حياته.

وأسأل الله تعالى أن يوفقني لذلك، وأن يحفظ عملي من شوائب الرياء والسُّمعة والأشر والبطر، ويتقبله ويُحصِّنه من الإحباط بالعُجب والذنب، إنه ولي التوفيق.



الفصل الأول

الوِلَايَةُ الإِلَهِيَّةُ



تتملّكنا الدهشة عندما نستمع إلى الوحي يأمرنا بالولاية، ونتساءل: ما هذا التأكيد المتواصل، وما هذه التعابير البالغة أمراً وتحريضاً وترغيباً؟

يقول الله سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1].

وتتكرر أوامر القرآن بالطاعة لأولي الأمر الشرعيين والتسليم لأمرهم، والنهي عن طاعة الطغاة والجبابرة وضرورة الكفر بهم أكثر من مائة مرة، بصيغ مختلفة، وضمن سياقات شتى، كلها تهدف إلى ترويض النفس البشرية على الطاعة والانضباط.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[2].

وتتواصل آيات الذكر لتؤكد على الرجوع إلى الله ورسوله عشرات المرات وبتعابير شتى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٥.

يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾(١).

وهكذا العديد من الآيات تنهى وبشدة بالغة عن التحاكم إلى الطاغوت وتأمر باجتنابه.

ويقول ربُّنا سبحانه وهو ينهي مئات المرات عن الشرك ويعتبره ظلماً عظيماً لا يغفره الله تعالى أبداً، يقول: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾(٢).

فما هو الشرك؟ أليس هو عبادة الأصنام؟ أليس اتّخاذ الأرباب من دون الله شركاً، كما اتّخذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان أرباباً؟

وهكذا نجد أن الولاية الإلهية محور آيات الذكر وروح توحيد الله تعالى، والسبيل إلى رضوانه، والطريق إلى جنّاته.

فلماذا كل ذلك؟.

إن شرح حكمة ذلك يقتضي كتباً مفصلةً. ولكننا نختصرها في كلمات نرجو أن يُسعفنا فيها تدبُّر القارئ الكريم، وآفاق ثقافته الإسلامية.

أولاً: أمام الإنسان سبيلان: سبيل الله الذي يهديه إلى الجنة والرضوان، وسبيل الشيطان الذي يحمله إلى سواء الجحيم. ويتّجه كل سبيل إلى جهة، ولكل جهة إمام، ولكل إمام صفات وأسماء، ولكل أمة تابعة صبغةٌ وشرعةٌ ومنهاجٌ!

والصراع الأبدي الذي لا هُدنة فيه ولا مُداهنة ولا حلول وسط،

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

إنه الصراع بين سبيل الله وسُبُل الشيطان.

وقد قال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

وولاية الله سبحانه، وتولي أوليائه، واتّباع الإمام المختار من عنده، والانخراط في حزب الصالحين، كلّها بلا ريب الولاية الإلهية. فكيف لا تتواصى بها رسالات الله ورُسله وأوصياؤهم.

ثانياً: حكمة وجود الإنسان فوق هذا الكوكب ابتلاؤه ليَعلم هل يَصدُقُ أم هو من الكاذبين؟. هل يُخلص أم يكون من المنافقين؟. ولا يُبتلى البشر بشيء كما يُبتلى باتّباع القيادة الإلهية ورفض جبابرة المال وطغاة السلطة، أَوَتَدْرِي لماذا؟

إن في ضمير الإنسان كبراً لا بد أن يتغلب عليه حتى يصبح من أهل الجنة. وإنْ لم يتخلّص منه باجتهاده وجهاده في الدنيا، فإنه سوف يخلص منه بنار الجحيم في الآخرة، لأنه لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر. ومحتوى الكبر النزعة السخيفة نحو ادّعاء الربوبية. ولو تسنى لأي إنسان ما تسنى لفرعون لما امتنع عما قاله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[2].

وإنما يتطهر القلب عن الكبر إذا أُمر بطاعة مَنْ ليس بأكثر منه

(١) سورة المائدة، الآية: ١٥ - ١٦.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

مالاً وولداً. إطاعته بسبب أمر الله. وهكذا كانت الفتنة الكبرى للناس عند ابتعاث الرسل، إذ كيف يُطيعون بشراً من أمثالهم؟. وقد حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[1].

ويتساءل البسطاء: لماذا امتحن الله تعالى خلقه بطاعة الأنبياء وطاعة أوصيائهم، وقد اختارهم من أوساط الناس؟. ويمضي المتسائل قائلاً: أَوَلَمْ يكن من الأفضل أن يُزوِّدهم الله سبحانه بقوى خارقة وبأموال وبنين حتى تسهل طاعة الناس لهم؟

كلا.. لأنه عندئذ كانت تبطل حكمة الابتلاء، ولم تكن تصبح طاعتهم تطهيراً للنفوس من الكبر، وبالتالي لم يكن المُطيعون هم يُزكّون بذلك إعداداً لدخول الجنة التي هي مأوى عباد الله الخالصين من دنس الشِّرك والكبر.

وهكذا يُبيِّنُ هذه الحكمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إذ يقول: **«وَلَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطِفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ؛ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ الْبَلْوَى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ؛ تَمْيِيزاً بِالِاخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفْياً لِلاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلَاءِ مِنْهُمْ»**[2].

ويضيف الإمام عليه السلام في السياق ذاته قائلاً: **«وَلَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ -حَيْثُ بَعَثَهُمْ- أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرَضِينَ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ وَبَطَلَ الْجَزَاءُ وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَلَمَا وَجَبَ**

---

(١) سورة القمر، الآية: ٢٤.

(٢) نهج البلاغة، دار الهجرة للنشر - قم، ص: ٢٨٦ - ٢٨٧، الخطبة رقم ١٩٢.

لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنًى، وَخَصَاصَةٍ تَمْلَأُ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَذًى»[1].

وبعد بيان مفصل حول حكمة الاختبار في فصل زخارف الدنيا عن أولياء الله يقول عليه السلام: «وَلَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَلْوَانِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ؛ إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ.

فَاللهَ اللهَ فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ، وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ؛ فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ»[2].

وهكذا حرّض الوحي على التسليم للأنبياء وأولي الأمر من خاصتهم، وجعل فيه ثواباً عظيماً. وجاء في حديث مأثور عن النبيّ صلى الله عليه وآله، أنه قال: «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ وَتَوَالِي وَلِيِّ اللهِ وَتَعَادِي عَدُوِّ اللهِ»[3].

وروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «مَنْ أَحَبَّنَا لَا لِدُنْيَا يُصِيبُهَا مِنَّا، وَعَادَى عَدُوَّنَا لَا لِشَحْنَاءَ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ؛ أَتَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَعَلِيٍّ»[4].

---

(١) نهج البلاغة، ص ٢٩١.
(٢) نهج البلاغة، ص ٢٩٢ - ٢٩٣.
(٣) بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٥٧.
(٤) بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٥٦.

وكما يتحدى الإنسان بالولاية نزعة الكبر وادّعاء الربوبية في ذاته، يتحدى بها نزعة الطمع وشهوات الدنيا؛ لأن من يُطِعْ أولياء الله يُحارِبْهُ طغاة الأرض والمترفون في الدنيا بشتى وسائل الحرب، بالدعاية المضادة، وبالتضييق الاقتصادي، وبالأذى الجسدي، وحتى بالتشريد والقتل.

ولأن الولاية كانت امتحاناً عظيماً للإنسان، جُعلت شرطاً لقبول الأعمال، حيث إن هدف سائر الطاعات تذليل النفس البشرية المتفرعنة والمتجبرة، وتذليلها لطاعة ربها، وتطهيرها من عبودية الله عن دنس الكبر والشرك والشك. وهذا الهدف يبلغ قمته بالولاية، حيث يخضع البشر لبشر مثله لا يتميز عنه بجاهٍ عريض، ولا بثروة واسعة وإنما يأمره الله تعالى بذلك، وهذا ما تأباه النفس أشد الإباء. وقد سأل بعضُهم أن ينزل عذابُ الله الواقع لكيلا يؤمن بالولاية.

وها نحن نقرأ معاً أحاديث في فضل الولاية، لنعرف مدى فضلها وكيف أنها قطب الرحى في تعاليم الوحي.

جاء في حديث مفصل عن أمير المؤمنين عليه السلام في إجابته لأسئلة زنديق: «**أَنَّ الْإِيمَانَ قَدْ يَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ: إِيمَانٍ بِالْقَلْبِ وَإِيمَانٍ بِاللِّسَانِ، كَمَا كَانَ إِيمَانُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله لَمَّا قَهَرَهُمُ السَّيْفُ وَشَمِلَهُمُ الْخَوْفُ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ، فَالْإِيمَانُ بِالْقَلْبِ هُوَ التَّسْلِيمُ لِلرَّبِّ، وَمَنْ سَلَّمَ الْأُمُورَ لِمَالِكِهَا لَمْ يَسْتَكْبِرْ عَنْ أَمْرِهِ كَمَا اسْتَكْبَرَ إِبْلِيسُ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ، وَاسْتَكْبَرَ أَكْثَرُ الْأُمَمِ عَنْ طَاعَةِ أَنْبِيَائِهِمْ، فَلَمْ يَنْفَعْهُمُ التَّوْحِيدُ كَمَا لَمْ يَنْفَعْ إِبْلِيسَ ذَلِكَ السُّجُودُ الطَّوِيلُ، فَإِنَّهُ سَجَدَ سَجْدَةً وَاحِدَةً أَرْبَعَةَ آلَافِ عَامٍ لَمْ يُرِدْ بِهَا غَيْرَ زُخْرُفِ الدُّنْيَا وَالتَّمْكِينِ مِنَ النَّظْرَةِ؛ فَلِذَلِكَ لَا تَنْفَعُ الصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ إِلَّا مَعَ الاهْتِدَاءِ إِلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ وَطَرِيقِ الْحَقِّ**»[1].

(١) بحار الأنوار، ج٢٧، ص ٥٧.

ولذلك لم يقبل الله سبحانه طاعة عبد لم يقبل الولاية مهما اجتهد في العبادة والطاعة. هكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، إذ قال: «**مَرَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عليه السلام بِرَجُلٍ رَافِعٍ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَدْعُو k فَانْطَلَقَ مُوسَى فِي حَاجَتِهِ، فَغَابَ عَنْهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ يَدْعُو وَيَتَضَرَّعُ وَيَسْأَلُ حَاجَتَهُ، فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: يَا مُوسَى! لَوْ دَعَانِي حَتَّى تَسْقُطَ لِسَانُهُ مَا اسْتَجَبْتُ لَهُ حَتَّى يَأْتِيَنِي مِنَ الْبَابِ الَّذِي أَمَرْتُهُ بِهِ**»[1].

فولاية الإنسان صبغة أعماله، إنْ خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشرّ. لذلك جاء في الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فيما رواه أبو سعيد الخدري:

«**لَوْ أَنَّ عَبْداً عَبَدَ اللهَ أَلْفَ عَامٍ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، ثُمَّ ذُبِحَ كَمَا يُذْبَحُ الْكَبْشُ مَظْلُوماً؛ لَبَعَثَهُ اللهُ مَعَ النَّفَرِ الَّذِينَ يَقْتَدِي بِهِمْ وَيَهْتَدِي بِهُدَاهُمْ وَيَسِيرُ بِسِيرَتِهِمْ إِنْ جَنَّةً فَجَنَّةٌ وَإِنْ نَاراً فَنَارٌ**»[2].

وهكذا الولاية تكون وجهة المجتمع، وعليها يكون الحساب والجزاء. فقد رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله عَنْ جَبْرَئِيلَ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «**وَعِزَّتِي وَجَلَالِي! لَأُعَذِّبَنَّ كُلَّ رَعِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ دَانَتْ بِوَلَايَةِ إِمَامٍ جَائِرٍ لَيْسَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنْ كَانَتِ الرَّعِيَّةُ فِي أَعْمَالِهَا بَرَّةً تَقِيَّةً، وَلَأَعْفُوَنَّ عَنْ كُلِّ رَعِيَّةٍ دَانَتْ بِوَلَايَةِ إِمَامٍ عَادِلٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَإِنْ كَانَتِ الرَّعِيَّةُ فِي أَعْمَالِهَا طَالِحَةً مُسِيئَةً**»[3].

فَضمنَ إطار الولاية الإلهية لابد أن نعرف شخصية الإمام السجاد عليه السلام وأبعاد حياته. إنه كغيره من سائر الأنبياء والأئمة عليهم السلام، الذين

---

(١) أي باب الطاعة للنبي وأوصيائه. بحار الأنوار، ج٢٧، ص ١٨٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٢٧، ص ١٨٠.

(٣) بحار الأنوار، ج٢٧، ص ٢٠١.

سعوا جاهدين من أجل تطهير قلوب الناس من الجبت، ومجتمعاتهم من الطاغوت. ولكن ذلك لم يكن حكمة حياتهم الأولى حتى نقول: إنهم قد فشلوا في تحقيق ذلك، وإنما كانت الحكمة الأولى ابتلاء الناس، حيث قاموا بتلاوة وحي الله وبتعليم الناس وتزكيتهم. وقد قال ربُّنا سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

بلى، كان من الأهداف السامية لبعثة الرسل، ونهضة أوصيائهم، وقيام أوليائهم، إعداد الناس للقيام بالقسط. ولا أقول: قيامهم بالقسط بين الناس، لأن ذلك يوحي بالوكالة في ذلك، وهذا ما ينفيه الوحي ببلاغة نافذة. فاستمع إلى قول ربِّك العزيز: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

الإمام السجاد وريث الأنبياء:

ولأن الإمام زين العابدين عليه السلام ورث عن جده النبي المصطفى (عليه وآله الصلاة والسلام) دور الأنبياء، فإن الحكمة الأولى لإمامته هي الحكمة ذاتها الأولى في رسالة الأنبياء: ابتلاء الناس بعد دعوتهم إلى الله، وكانت سائر الأهداف السامية -كإقامة القسط ونصرة المظلومين- في امتداد تلك الحكمة، أي أنها تتفرع منها وتأتي بعدها.

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

ولقد تسنّت لسائر أئمة الهدى عليهم السلام الظروف للقيام بتلك الأهداف المتدرجة، وبالذات الهدف السياسي، كما فعل الإمام علي عليه السلام عندما نهض بأعباء الحرب ضد قريش مرتين، مرة في عهد النبي صلى الله عليه وآله وتحت لوائه، ومرة بعد النبي وتحت لواء الرسالة الحنفية وبرفقة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله . وهكذا نجله الإمام الحسن عليه السلام . حيث نهض هو الآخر بأعباء الحرب ضد معاوية، ثم أوقف الحرب لمصلحة المسلمين. وكذلك الإمام الحسين عليه السلام حيث قاوم معاوية بالسبل السلمية، وقام ضد ابنه يزيد بالسيف حتى استُشهد مظلوماً.

وهكذا قام سائر الأئمة بأدوار سياسية، وبوسائل غير مباشرة، وبدرجات مختلفة.

في حين أن الظروف العامة كانت تناسب تمحض الإمام السجاد عليه السلام تقريباً في الدعوة الربانية، حسبما نبين ذلك في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى.

وبذلك كانت حياة الإمام السجاد عليه السلام قطعة مشرقة بنور ربه.. وكانت تجلياً باهراً للإيمان الخالص بالله، وللهيام الشديد بالله، وللعبادة والتبتل.

وحينما نقرأ معاً صفات الإمام على لسان نجله الإمام الباقر عليه السلام، نعرف ماذا تعني ولاية الله، وولاية أوليائه، ولماذا التأكيد عليها، وكيف كانت حياة السجاد شلال نور إلهي. يقول نجله الإمام الباقر عليه السلام:

«كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام يُصَلِّي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَ رَكْعَةٍ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام. كَانَتْ لَهُ خَمْسُمِائَةِ نَخْلَةٍ فَكَانَ يُصَلِّي عِنْدَ كُلِّ نَخْلَةٍ رَكْعَتَيْنِ. وَكَانَ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ غَشِيَ لَوْنَهُ لَوْنٌ آخَرُ، وَكَانَ قِيَامُهُ فِي صَلَاتِهِ قِيَامَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ، كَانَتْ أَعْضَاؤُهُ تَرْتَعِدُ مِنْ

خَشْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ يُصَلِّي صَلَاةَ مُوَدِّعٍ يَرَى أَنَّهُ لَا يُصَلِّي بَعْدَهَا أَبَداً، وَلَقَدْ صَلَّى ذَاتَ يَوْمٍ فَسَقَطَ الرِّدَاءُ عَنْ أَحَدِ مَنْكِبَيْهِ فَلَمْ يُسَوِّهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ فَسَأَلَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَيْحَكَ أَتَدْرِي بَيْنَ يَدَيْ مَنْ كُنْتُ؟. إِنَّ الْعَبْدَ لَا تُقْبَلُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مِنْهَا بِقَلْبِهِ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: هَلَكْنَا.

فَقَالَ: كَلَّا؛ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُتَمِّمُ ذَلِكَ بِالنَّوَافِلِ.

وَكَانَ عليه السلام لَيَخْرُجُ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ فَيَحْمِلُ الْجِرَابَ عَلَى ظَهْرِهِ وَفِيهِ الصُّرَرُ مِنَ الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ، وَرُبَّمَا حَمَلَ عَلَى ظَهْرِهِ الطَّعَامَ أَوِ الْحَطَبَ حَتَّى يَأْتِيَ بَاباً بَاباً فَيَقْرَعُهُ ثُمَّ يُنَاوِلُ مَنْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ، وَكَانَ يُغَطِّي وَجْهَهُ إِذَا نَاوَلَ فَقِيراً لِئَلَّا يَعْرِفَهُ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ عليه السلام فَقَدُوا ذَلِكَ فَعَلِمُوا أَنَّهُ كَانَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام. وَلَمَّا وُضِعَ عليه السلام عَلَى الْمُغْتَسَلِ نَظَرُوا إِلَى ظَهْرِهِ وَعَلَيْهِ مِثْلُ رُكَبِ الْإِبِلِ مِمَّا كَانَ يَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ.

وَلَقَدْ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ وَعَلَيْهِ مِطْرَفُ [مُطْرَفُ] خَزٍّ فَتَعَرَّضَ لَهُ سَائِلٌ فَتَعَلَّقَ بِالْمِطْرَفِ فَمَضَى وَتَرَكَهُ. وَكَانَ يَشْتَرِي الْخَزَّ فِي الشِّتَاءِ وَإِذَا جَاءَ الصَّيْفُ بَاعَهُ فَتَصَدَّقَ بِثَمَنِهِ. وَلَقَدْ نَظَرَ عليه السلام يَوْمَ عَرَفَةَ إِلَى قَوْمٍ يَسْأَلُونَ النَّاسَ فَقَالَ: وَيْحَكُمْ أَغَيْرَ اللهِ تَسْأَلُونَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ؛ إِنَّهُ لَيُرْجَى فِي هَذَا الْيَوْمِ لِمَا فِي بُطُونِ الْحَبَالَى أَنْ يَكُونَ سَعِيداً.

وَلَقَدْ كَانَ عليه السلام يَأْبَى أَنْ يُؤَاكِلَ أُمَّهُ، فَقِيلَ لَهُ: يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ! أَنْتَ أَبَرُّ النَّاسِ وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ؛ فَكَيْفَ لَا تُؤَاكِلُ أُمَّكَ؟

فَقَالَ: إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَسْبِقَ يَدِي إِلَى مَا سَبَقَتْ عَيْنُهَا إِلَيْهِ.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ! إِنِّي لَأُحِبُّكَ فِي اللهِ حُبّاً شَدِيداً.

فَقَالَ: اللّهُمَّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُحبَّ فِيكَ وَأَنْتَ لِي مُبْغِضٌ.

وَلَقَدْ حَجَّ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ عِشْرِينَ حَجَّةً فَمَا قَرَعَهَا بِسَوْطٍ فَلَمَّا نَفَقَتْ[1] أَمَرَ بِدَفْنِهَا لِئَلَّا يَأْكُلَهَا السِّبَاعُ. وَلَقَدْ سُئِلَتْ عَنْهُ مَوْلَاةٌ لَهُ فَقَالَتْ: أُطْنِبُ وَ [أَوْ] أَخْتَصِرُ؟ فَقِيلَ لَهَا: بَلِ اخْتَصِرِي، فَقَالَتْ: مَا أَتَيْتُهُ بِطَعَامٍ نَهَاراً قَطُّ، وَمَا فَرَشْتُ لَهُ فِرَاشاً بِلَيْلٍ قَطُّ.

وَلَقَدِ انْتَهَى ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ يَغْتَابُونَهُ فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَغَفَرَ اللهُ لِي، وَإِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ فَغَفَرَ اللهُ لَكُمْ. وَكَانَ عليه السلام إِذَا جَاءَهُ طَالِبُ عِلْمٍ قَالَ: مَرْحَباً بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ إِذَا خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ لَمْ يَضَعْ رِجْلَيْهِ عَلَى رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا سَبَّحَتْ لَهُ إِلَى الْأَرَضِينَ السَّابِعَةِ. وَلَقَدْ كَانَ يَعُولُ مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ فُقَرَاءِ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ يَحْضُرَ طَعَامَهُ الْيَتَامَى وَالْأَضِرَّاءُ وَالزَّمْنَى وَالْمَسَاكِينُ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ.

وَكَانَ يُنَاوِلُهُمْ بِيَدِهِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ لَهُ عِيَالٌ حَمَلَ لَهُ إِلَى عِيَالِهِ مِنْ طَعَامِهِ. وَكَانَ لَا يَأْكُلُ طَعَاماً حَتَّى يَبْدَأَ فَيَتَصَدَّقَ بِمِثْلِهِ. وَلَقَدْ كَانَ تَسْقُطُ مِنْهُ كُلَّ سَنَةٍ سَبْعُ ثَفِنَاتٍ مِنْ مَوَاضِعِ سُجُودِهِ لِكَثْرَةِ صَلَاتِهِ، وَكَانَ يَجْمَعُهَا، فَلَمَّا مَاتَ دُفِنَتْ مَعَهُ. وَلَقَدْ بَكَى عَلَى أَبِيهِ الْحُسَيْنِ عليه السلام عِشْرِينَ سَنَةً، وَمَا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَعَامٌ إِلَّا بَكَى، حَتَّى قَالَ لَهُ مَوْلًى لَهُ: يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ! أَمَا آنَ لِحُزْنِكَ أَنْ يَنْقَضِيَ؟ فَقَالَ لَهُ وَيْحَكَ إِنَّ يَعْقُوبَ النَّبِيَّ عليه السلام كَانَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ ابْناً فَغَيَّبَ اللهُ عَنْهُ وَاحِداً مِنْهُمْ فَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ بُكَائِهِ عَلَيْهِ، وَشَابَ رَأْسُهُ مِنَ الْحُزْنِ، وَاحْدَوْدَبَ ظَهْرُهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَانَ ابْنُهُ حَيّاً فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا نَظَرْتُ إِلَى أَبِي وَأَخِي وَعَمِّي وَسَبْعَةَ عَشَرَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي

(١) نفقت الدابة: ماتت (القاموس).

مَقْتُولِينَ حَوْلِي! فَكَيْفَ يَنْقَضِي حُزْنِي؟!»[1].

وقد زخرت كتب التاريخ بكرامات الإمام[2]، ولا عجب؛ فإن إماماً هذه صفاته يكرمه الله بفضله، أوَلَمْ يُكرم الله عباده الصالحين باستجابة دعواتهم؟

وقد قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3].

فكيف لا يستجيب لمن ذاب في حب ربه حتى خشي عليه الهلاك من شدة العبادة. ولننظر معاً في الرواية التالية ثم نقيسها بما نعرفه من قصص القرآن حول الصالحين من عباد الله، نرى أنهما نبعان من عين واحدة.

عن إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ وَفَتْحٌ الْمَوْصِلِيُّ قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: «كُنْتُ أَسِيحُ فِي الْبَادِيَةِ مَعَ الْقَافِلَةِ فَعَرَضَتْ لِي حَاجَةٌ، فَتَنَحَّيْتُ عَنِ الْقَافِلَةِ فَإِذَا أَنَا بِصَبِيٍّ يَمْشِي فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! بَادِيَةٌ بَيْدَاءُ وَصَبِيٌّ يَمْشِي؟ فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: **أُرِيدُ بَيْتَ رَبِّي**، فَقُلْتُ: حَبِيبِي! إِنَّكَ صَغِيرٌ لَيْسَ عَلَيْكَ فَرْضٌ وَلَا سُنَّةٌ؟ فَقَالَ: **يَا شَيْخُ! مَا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَصْغَرُ سِنّاً مِنِّي مَاتَ؟** فَقُلْتُ: أَيْنَ الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ؟ فَقَالَ: **زَادِي تَقْوَايَ وَرَاحِلَتِي رِجْلَايَ وَقَصْدِي مَوْلَايَ**، فَقُلْتُ: مَا أَرَى شَيْئاً مِنَ الطَّعَامِ مَعَكَ؟ فَقَالَ: **يَا شَيْخُ! هَلْ يُسْتَحْسَنُ أَنْ يَدْعُوكَ إِنْسَانٌ إِلَى دَعْوَةٍ فَتَحْمِلَ مِنْ بَيْتِكَ الطَّعَامَ؟!** قُلْتُ: لَا، قَالَ: **الَّذِي دَعَانِي إِلَى بَيْتِهِ هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**، فَقُلْتُ: ارْفَعْ رِجْلَكَ حَتَّى تُدْرِكَ[4]، فَقَالَ:

(1) بحار الأنوار، ج٤٦، ص ٦١ - ٦٣.

(2) سوف نذكر بعضاً منها في خاتمة الكتاب.

(3) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(4) يعني ارفع رجلك - أو رحلك - عن المركوب، واركب مطيتي حتى تدرك الحج.

عليّ الجهادُ وعليه الإبلاغُ، أما سمعتَ قولَه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1].

قالَ: فبينا نحنُ كذلكَ إذْ أقبلَ شابٌّ حسنُ الوجهِ عليهِ ثيابٌ بيضٌ حسنةٌ فعانقَ الصبيَّ وسلّمَ عليهِ، فأقبلتُ على الشابِّ وقلتُ لهُ: أسألُكَ بالذي حسّنَ خلقَكَ مَنْ هذا الصبيُّ؟ فقالَ: أما تعرفُهُ؟! هذا عليُّ بنُ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، فتركتُ الشابَّ وأقبلتُ على الصبيِّ وقلتُ: أسألُكَ بآبائِكَ مَنْ هذا الشابُّ؟ فقالَ: أما تعرفُهُ؟! هذا أخي الخضرُ يأتينا كلَّ يومٍ فيسلّمُ علينا، فقلتُ: أسألُكَ بحقِّ آبائِكَ لمّا أخبرتَني بما تجوزُ المفاوزَ بلا زادٍ؟ قالَ: بلْ أجوزُ بزادٍ وزادي فيها أربعةُ أشياءَ، قلتُ: وما هيَ؟ قالَ: أرى الدنيا كلَّها بحذافيرِها مملكةَ اللهِ، وأرى الخلقَ كلَّهُم عبيدَ اللهِ وإماءَهُ وعيالَهُ، وأرى الأسبابَ والأرزاقَ بيدِ اللهِ، وأرى قضاءَ اللهِ نافذاً في كلِّ أرضِ اللهِ، فقلتُ: نِعمَ الزادُ زادُكَ يا زينَ العابدينَ، وأنتَ تجوزُ بها مفاوزَ الآخرةِ فكيفَ مفاوزُ الدنيا؟»[2].

وقصة مشابهة يرويها حمّادُ بنُ حبيبٍ الكوفيُّ القطّانُ فيقول: «انقطعتُ عنِ القافلةِ عندَ زُبالةَ[3]، فلمّا أنْ أجنّني الليلُ أويتُ إلى شجرةٍ عاليةٍ، فلمّا اختلطَ الظلامُ إذا أنا بشابٍّ قدْ أقبلَ عليهِ أطمارٌ بيضٌ يفوحُ منهُ رائحةُ المسكِ، فأخفيتُ نفسي ما استطعتُ، فتهيّأَ للصلاةِ ثمَّ وثبَ قائماً وهوَ يقولُ: يا مَنْ حازَ كلَّ شيءٍ ملكوتاً، وقهرَ كلَّ شيءٍ جبروتاً؛ أولجْ قلبي فرحَ الإقبالِ عليكَ، وألحقْني بميدانِ المطيعينَ لكَ. ثمَّ دخلَ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) قصة إبراهيم، بحار الأنوار، ج٤٦، ص ٣٦.

(٣) زبالة: اسم موضع بطريق مكة.

فِي الصَّـلَاةِ، فَلَمَّا رَأَيْتُـهُ وَقَدْ هَدَأَتْ أَعْضَاؤُهُ وَسَـكَنَتْ حَرَكَاتُهُ قُمْتُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي تَهَيَّأَ فِيهِ إِلَى الصَّلَاةِ، فَإِذَا أَنَا بِعَيْنٍ تَنْبُعُ، فَتَهَيَّأْتُ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ قُمْتُ خَلْفَهُ فَإِذَا بِمِحْرَابٍ كَأَنَّهُ مُثِّلَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَرَأَيْتُهُ كُلَّمَا مَرَّ بِالْآيَةِ الَّتِي فِيهَا الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ يُرَدِّدُهَا بِانْتِحَابٍ وَحَنِينٍ، فَلَمَّا أَنْ تَقَشَّعَ الظَّلَامُ وَثَبَ قَائِماً وَهُوَ يَقُولُ: **يَا مَنْ قَصَدَهُ الضَّالُّونَ فَأَصَابُوهُ مُرْشِداً، وَأَمَّهُ الْخَائِفُونَ فَوَجَدُوهُ مَعْقِلًا، وَلَجَأَ إِلَيْهِ الْعَابِدُونَ فَوَجَدُوهُ مَوْئِلًا، مَتَى رَاحَةُ مَنْ نَصَبَ لِغَيْرِكَ بَدَنَهُ، وَمَتَى فَرِحُ مَنْ قَصَدَ سِوَاكَ بِنِيَّتِهِ. إِلَهِي قَدْ تَقَشَّعَ الظَّلَامُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ خِدْمَتِكَ وَطَراً، وَلَا مِنْ حِيَاضِ مُنَاجَاتِكَ صَدْراً، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَافْعَلْ بِي أَوْلَى الْأَمْرَيْنِ بِكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.** فَخِفْتُ أَنْ يَفُوتَنِي شَخْصُهُ وَأَنْ يَخْفَى عَلَيَّ أَمْرُهُ فَتَعَلَّقْتُ بِهِ، فَقُلْتُ: بِالَّذِي أَسْقَطَ عَنْكَ هَلَاكَ التَّعَبِ، وَمَنَحَكَ شِدَّةَ لَذِيذِ الرَّهَبِ؛ إِلَّا مَا لَحِقْتَنِي [أَلْحَقْتَنِي] مِنْكَ جَنَاحَ رَحْمَةٍ وَكَنَفَ رِقَّةٍ، فَإِنِّي ضَالٌّ. فَقَالَ: **لَوْ صَدَقَ تَوَكُّلُكَ مَا كُنْتَ ضَالًّا، وَلَكِنِ اتَّبِعْنِي وَاقْفُ أَثَرِي.** فَلَمَّا أَنْ صَارَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَخَذَ بِيَدِي وَتَخَيَّلَ لِي أَنَّ الْأَرْضَ يَمْتَدُّ مِنْ تَحْتِ قَدَمِي، فَلَمَّا انْفَجَرَ عَمُودُ الصُّبْحِ قَالَ لِي: **أَبْشِرْ فَهَذِهِ مَكَّةُ**، فَسَمِعْتُ الضَّجَّةَ وَرَأَيْتُ الْحَجَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: بِالَّذِي تَرْجُوهُ يَوْمَ الْآزِفَةِ يَوْمَ الْفَاقَةِ! مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: **إِذَا أَقْسَمْتَ فَأَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ**»[1].

ألم أقل لك: إنه كان ومضة نور وشلّال إيمان، وقبساً من وهج الرسالة؟

كان الظلام يخيم على طرقات المدينة، وقد أوى الناس إلى بيوتهم، والسماء تمطر ورياح الشتاء الباردة تعصف.. فيقول الزُّهْرِيُّ: «رَأَيْتُه عليه السلام

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٤٠.

يَمْشِي وَعَلَى ظَهْرِهِ دَقِيقٌ. فقلت: يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ مَا هَذَا؟.

قَالَ عليه السلام: **أُرِيدُ سَفَراً أُعِدُّ لَهُ زَاداً أَحْمِلُهُ إِلَى مَوْضِعٍ حَرِيزٍ.**

فَقَالَ الزُّهْرِيُّ: فَهَذَا غُلَامِي يَحْمِلُهُ عَنْكَ، فَأَبَى عليه السلام.

فَقَالَ الزُّهْرِيُّ: أَنَا أَحْمِلُهُ عَنْكَ فَإِنِّي أَرْفَعُكَ (وأجلُّك) عَنْ حَمْلِهِ.

فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: **لَكِنِّي لَا أَرْفَعُ نَفْسِي (ولا أجل نفسي) عَمَّا يُنْجِينِي فِي سَفَرِي وَيُحْسِنُ وُرُودِي عَلَى مَا أَرِدُ عَلَيْهِ.**

وأضاف الإمام قائلاً: **أَسْأَلُكَ بِحَقِّ اللهِ لَمَّا مَضَيْتَ لِحَاجَتِكَ وَتَرَكْتَنِي**. فَانْصَرَفَ عَنْهُ فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَالَ لَهُ يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ لَسْتُ أَرَى لِذَلِكَ السَّفَرِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ أَثَراً.

قَالَ: **بَلَى يَا زُهْرِيُّ!. لَيْسَ مَا ظَنَنْتَ، وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ، وَلَهُ أَسْتَعِدُّ.**

وأضاف الإمام لبيان هدف حمله تلك البضاعة في الليل إلى بيوت الفقراء: **إِنَّمَا الِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ تَجَنُّبُ الْحَرَامِ وَبَذْلُ النَّدَى فِي الْخَيْرِ»**[1].

إن جذور شخصية الإمام زين العابدين تمتد في أفق معرفته بالله تعالى، ويقينه باليوم الآخر، ووعيه للسرعة الخاطفة التي تبتلع ساعات الليل والنهار من عمر البشر، وتزاحم الواجبات عليه!.

حينما يسأله رجل: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ؟ يقول: أَصْبَحْتُ مَطْلُوباً بِثَمَانٍ: **اللهُ تَعَالَى يَطْلُبُنِي بِالْفَرَائِضِ، وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وآله بِالسُّنَّةِ، وَالْعِيَالُ بِالْقُوتِ، وَالنَّفْسُ بِالشَّهْوَةِ، وَالشَّيْطَانُ بِاتِّبَاعِهِ وَالْحَافِظَانِ بِصِدْقِ الْعَمَلِ، وَمَلَكُ الْمَوْتِ بِالرُّوحِ، وَالْقَبْرُ بِالْجَسَدِ؛ فَأَنَا**

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص ٦٥ - ٦٦.

بَيْنَ هَذِهِ الخِصَالِ مَطْلُوب»[1].

إنه كان مثلاً رائعاً للآية الكريمة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[2].

لقد أحبَّ الله حتى فاضت على شفاهه روافد الحب في صورة ابتهالات ومناجاة سجّل التاريخ جزءاً بسيطاً جدًّا منها في صحيفته المعروفة بـ(السجادية). فلنستمع معاً إلى هذه الرائعة التي تبهر الأبصار:

«فَقَدِ انْقَطَعَتْ إِلَيْكَ هِمَّتِي، وَانْصَرَفَتْ نَحْوَكَ رَغْبَتِي، فَأَنْتَ لَا غَيْرُكَ مُرَادِي، وَلَكَ لَا لِسِوَاكَ سَهَرِي وَسُهَادِي، وَلِقَاؤُكَ قُرَّةُ عَيْنِي، وَوَصْلُكَ مُنَى نَفْسِي، وَإِلَيْكَ شَوْقِي، وَفِي مَحَبَّتِكَ وَلَهِي، وَإِلَى هَوَاكَ صَبَابَتِي، وَرِضَاكَ بُغْيَتِي، وَرُؤْيَتُكَ حَاجَتِي، وَجِوَارُكَ طَلِبَتِي، وَقُرْبُكَ غَايَةُ سُؤْلِي، وَفِي مُنَاجَاتِكَ أُنْسِي وَرَاحَتِي، وَعِنْدَكَ دَوَاءُ عِلَّتِي وَشِفَاءُ غُلَّتِي وَبَرْدُ لَوْعَتِي وَكَشْفُ كُرْبَتِي، فَكُنْ أَنِيسِي فِي وَحْشَتِي، وَمُقِيلَ عَثْرَتِي، وَغَافِرَ زَلَّتِي، وَقَابِلَ تَوْبَتِي، وَمُجِيبَ دَعْوَتِي، وَوَلِيَّ عِصْمَتِي، وَمُغْنِيَ فَاقَتِي، وَلَا تَقْطَعْنِي عَنْكَ وَلَا تُبْعِدْنِي مِنْكَ، يَا نَعِيمِي وَجَنَّتِي، وَيَا دُنْيَايَ وَآخِرَتِي، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»[3].

فأيُّ قلبٍ مفعم بالإيمان هذا الذي يفيض بهذه الكلمات المضيئة؟!.. وأي فؤاد ملتهب بالشوق إلى الله، متيم بحب الله، يشع بهذه المناجاة؟. إنّه قلب ذلك الإمام الذي كانت الصلاة أحب الأمور

---

(١) في رحاب أئمة أهل البيت، ج ٣، ص ٢٣٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٣) مفاتيح الجنان، ص ١٢٤.

إليه. وكان الذكر شغله الشاغل والعبادة صبغة حياته!

فقد دَخَلَ عَلَى الخليفة الأموي عَبْدِالمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَاسْتَعْظَمَ عَبْدُالمَلِكِ مَا رَأَى مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ بَيْنَ عَيْنَيْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! لَقَدْ بَيَّنَ عَلَيْكَ الاِجْتِهَادُ، وَلَقَدْ سَبَقَ لَكَ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى، وَأَنْتَ بَضْعَةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله قَرِيبُ النَّسَبِ وَكِيدُ السَّبَبِ، وَإِنَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ وَذَوِي عَصْرِكَ، وَلَقَدْ أُوتِيتَ مِنَ الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ وَالْوَرَعِ مَا لَمْ يُؤْتَهُ أَحَدٌ مِثْلُكَ وَلَا قَبْلَكَ إِلَّا مَنْ مَضَى مِنْ سَلَفِكَ. وَأَقْبَلَ يُثْنِي عَلَيْهِ وَيُطْرِيهِ.. قَالَ: فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام:

«كُلُّ مَا ذَكَرْتَهُ وَوَصَفْتَهُ مِنْ فَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَأْيِيدِهِ وَتَوْفِيقِهِ، فَأَيْنَ شُكْرُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟. كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقِفُ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ، وَيَظْمَأُ فِي الصِّيَامِ حَتَّى يُعْصَبَ فُوهُ. فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَلَمْ يَغْفِرْ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ؟ فَيَقُولُ صلى الله عليه وآله: أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟. الْحَمْدُ للهِ عَلَى مَا أَوْلَى وَأَبْلَى، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى. وَاللهِ لَوْ تَقَطَّعَتْ أَعْضَائِي وَسَالَتْ مُقْلَتَايَ عَلَى صَدْرِي لَنْ أَقُومَ للهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِشُكْرِ عُشْرِ الْعَشِيرِ مِنْ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ جَمِيعِ نِعَمِهِ، الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَادُّونَ، وَلَا يَبْلُغُ حَدَّ نِعْمَةٍ مِنْهَا عَلَيَّ جَمِيعُ حَمْدِ الْحَامِدِينَ. لَا وَاللهِ أَوْ يَرَانِيَ اللهُ لَا يَشْغَلُنِي شَيْءٌ عَنْ شُكْرِهِ وَذِكْرِهِ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، وَلَا سِرٍّ وَلَا عَلَانِيَةٍ. وَلَوْ لَا أَنَّ لِأَهْلِي عَلَيَّ حَقّاً وَلِسَائِرِ النَّاسِ مِنْ خَاصِّهِمْ وَعَامِّهِمْ عَلَيَّ حُقُوقاً لَا يَسَعُنِي إِلَّا الْقِيَامُ بِهَا حَسَبَ الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ حَتَّى أُؤَدِّيَهَا إِلَيْهِمْ لَرَمَيْتُ بِطَرْفِي إِلَى السَّمَاءِ وَبِقَلْبِي إِلَى اللهِ ثُمَّ لَمْ أَرْدُدْهُمَا حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ عَلَى نَفْسِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ».

وَبَكَى عليه السلام وَبَكَى عَبْدُ الْمَلِكِ وَقَالَ: «شَتَّانَ بَيْنَ عَبْدٍ طَلَبَ

الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا، وَبَيْنَ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا مِنْ أَيْنَ جَاءَتْهُ ﴿مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، ثُمَّ أَقْبَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ حَاجَاتِهِ وَعَمَّا قَصَدَ لَهُ، فَشَفَّعَهُ فِيمَنْ شَفَعَ، وَوَصَلَهُ بِمَالٍ»[1].

وعندما يراه طاوس في أخريات الليل يطوف بالبيت الحرام يرى منه عجباً حتى يشفق عليه، فلنستمع إليه يروي قصته:

«رَأَيْتُهُ يَطُوفُ مِنَ الْعِشَاءِ إِلَى سَحَرٍ وَيَتَعَبَّدُ، فَلَمَّا لَمْ يَرَ أَحَداً رَمَقَ السَّمَاءَ بِطَرْفِهِ وَقَالَ: «إِلَهِي غَارَتْ نُجُومُ سَمَاوَاتِكَ، وَهَجَعَتْ عُيُونُ أَنَامِكَ، وَأَبْوَابُكَ مُفَتَّحَاتٌ لِلسَّائِلِينَ، جِئْتُكَ لِتَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي وَتُرِيَنِي وَجْهَ جَدِّي مُحَمَّدٍ ﷺ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ».

ثُمَّ بَكَى وَقَالَ: «وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ مَا أَرَدْتُ بِمَعْصِيَتِي مُخَالَفَتَكَ، وَمَا عَصَيْتُكَ إِذْ عَصَيْتُكَ وَأَنَا بِكَ شَاكٌّ، وَلَا بِنَكَالِكَ جَاهِلٌ، وَلَا لِعُقُوبَتِكَ مُتَعَرِّضٌ، وَلَكِنْ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، وَأَعَانَنِي عَلَى ذَلِكَ سَتْرُكَ الْمُرْخَى بِهِ عَلَيَّ، فَالْآنَ مِنْ عَذَابِكَ مَنْ يَسْتَنْقِذُنِي؟ وَبِحَبْلِ مَنْ أَعْتَصِمُ إِنْ قَطَعْتَ حَبْلَكَ عَنِّي؟ فَوَاسَوْأَتَاهُ غَداً مِنَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْكَ إِذَا قِيلَ لِلْمُخِفِّينَ: جُوزُوا، وَلِلْمُثْقِلِينَ حُطُّوا أَمَعَ الْمُخِفِّينَ أَجُوزُ؟ أَمْ مَعَ الْمُثْقِلِينَ أَحُطُّ؟ وَيْلِي كُلَّمَا طَالَ عُمْرِي كَثُرَتْ خَطَايَايَ وَلَمْ أَتُبْ، أَمَا آنَ لِي أَنْ أَسْتَحِيَ مِنْ رَبِّي؟!».

ثُمَّ بَكَى وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

أَتُحْرِقُنِي بِالنَّارِ يَا غَايَةَ الْمُنَى ... فَأَيْنَ رَجَائِي ثُمَّ أَيْنَ مَحَبَّتِي
أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ زَرِيَّةٍ ... وَمَا فِي الْوَرَى خَلْقٌ جَنَى كَجِنَايَتِي

ثُمَّ بَكَى وَقَالَ: «سُبْحَانَكَ تُعْصَى كَأَنَّكَ لَا تَرَى، وَتَحْلُمُ كَأَنَّكَ لَمْ

(1) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٥٧.

تُعصَى، تتودّدُ إلى خلقكَ بحُسنِ الصَّنيعِ كأنَّ بكَ الحاجةَ إليهم وأنتَ يا سيِّدي الغنيُّ عنهم».

ثُمَّ خرَّ إلى الأرضِ ساجداً قال: «فدنوتُ منهُ وشلتُ برأسِهِ ووضعتُهُ على ركبتي وبكيتُ حتى جرتْ دموعي على خدِّهِ فاستوى جالساً وقال: «**مَنِ الَّذي أشغلني عن ذِكرِ ربِّي؟**».

فقلتُ: أنا طاوسٌ يا بنَ رسولِ اللهِ. ما هذا الجزعُ والفزعُ؟

ونحنُ يلزمُنا أنْ نفعلَ مثلَ هذا ونحنُ عاصونَ جانونَ. أبوكَ الحسينُ بنُ عليٍّ، وأمُّكَ فاطمةُ الزهراءُ، وجدُّكَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله؟! قال: فالتفتَ إليَّ وقالَ:

«**هيهاتَ هيهاتَ يا طاوسُ، دعْ عنِّي حديثَ أبي وأمِّي وجدِّي، خلقَ اللهُ الجنَّةَ لمنْ أطاعهُ وأحسنَ ولو كانَ عبداً حبشيًّا، وخلقَ النارَ لمنْ عصاهُ ولو كانَ ولداً قرشيًّا. أما سمعتَ قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؟[1]. واللهِ لا ينفعُكَ غداً إلّا تقدِمةٌ [أي هديّة] تُقدِّمُها من عملٍ صالحٍ**»[2].

ولأنه أحب الله فوّض إليه أمره وسلّم له أشد التسليم، وهو عليه السلام يروي عن نفسه القصة التالية فيقول: «**مرضتُ مرضاً شديداً فقالَ لي أبي عليه السلام: ما تشتهي؟ فقلتُ: أشتهي أنْ أكونَ ممّنْ لا أقترحُ على اللهِ ربّي ما يُدبّرُهُ لي، فقالَ لي: أحسنتَ ضاهيتَ إبراهيمَ الخليلَ صلواتُ اللهِ عليهِ حيثُ قالَ جبرئيلُ[3]: هلْ منْ حاجةٍ؟ فقالَ: لا أقترحُ على ربِّي**

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠١.

(٢) قصته في المسجد الحرام مع طاووس.

(٣) قال له ذلك عندما همّ الطغاة رميه في النار عبر المنجنيق.

بَلْ حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل»[1].

وهكـذا أحبـه الله تعـالى وأكرمه ورفع شـأنه، وأجـرى على يديه تقديره، وألزم الناس ولايته.

والقصـة التاليـة تعكـس مـدى حـب الله سـبحانه للإمـام زيـن العابدين عليه السلام.

والقصـة يرويهـا طائفة مـن عُبّاد البـصرة وفقهائهـا، وهم ثابت البنـاني، وأيـوب السجستاني، وصالح المري، وعتبة الغـلام، وحبيب الفارسي، ومالك بن دينار.

وننقــل فيما يـلي نص ما جـاء في هامش كتاب بحـار الأنوار (ج ٤٦، ص ٥٠) عن هؤلاء العُبّاد بالترتيب:

أولاً: ثابت البناني: مـن التابعين، وقـد ترجمه أبو نعيـم في حلية الأوليـاء (ج ٢، ص ٣١٨ إلى ص ٣٣٣) فقـال: ومنهم المتعبد الناحل، المتهجد الذابل، أبو محمد ثابت بن مسلم البناني، وذكر أنه أسند عن غير واحـد من الصحابة منهم: ابن عمر، وابن الزبير، وشـداد وأنس وأكثر الروايـة عنه. وروى عنـه جماعة من التابعين منهم: عطـاء بن أبي رباح، وداود بن أبي هند، وعلي بن زيد بن جدعان، والأعمش، وغيرهـم.

ثانياً: أيوب السجستاني: من التابعين. قال أبو نعيم في حلية الأولياء، وقد ترجمه في (ج ٣ من ص ٣ إلى ص ١٣): ومنهم فتى الفتيان، سيد العبّاد والرهبان، المنوَّر باليقين والإيمان، السجستاني أيوب بن كيسان. كان فقيهاً محجاجاً، وناسكاً حجاجاً، عن الخلق آيساً، وبالحق آنساً.

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص ٦٧.

أسند أيوب عن أنس بن مالك، وعمرو بن سلمة الجرمي. ومن قدماء التابعين، عن أبي عثمان الهندي، وأبي رجاء العطاردي، وأبي العالية، والحسن، وابن سيرين وأبي قلابة.

وذكره الأردبيلي في جامع الرواة (ج ١، ص ١١١) فقال: أيوب ابن أبي تميمة، كيسان السجستاني العنزي البصري، كنيته أبو بكر مولى عمار بن ياسر، وكان عمار مولى، فهو مولى مولى. وكان يحلق شعره في كل سنة مرة، فإذا طال فَرَق. مات بالطاعون بالبصرة سنة ١٣١.

ثالثاً: صالح المري: هو ابن بشير، وصفه أبو نعيم في الحلية (ج ٦، ص ١٦٥) بقوله: القارئ الدرِي، والواعظ التقي، أبو بشير صالح بن بشير المري، صاحب قراءة وشجن ومخافة وحزن. يحرك الأخيار، ويفرك الأشرار.

أسند عن الحسن، وثابت، وقتادة، وبكر بن عبد الله المزني، ومنصور بن زاذان، وجعفر بن زيد، ويزيد الرقاشي، وميمون بن سياه، وأبان بن أبي عياش، ومحمد بن زياد، وهشام بن حسان، والجريري، وقيس بن سعد، وخليد بن حسان في آخَرين.

رابعاً: عتبة الغلام: هو الحر الهمام، المجلو من الظلام، المكلوء بالشهادة والكلام. قال عبيد الله بن محمد: عتبة الغلام هو عتبة بن أبان بن صمعة، مات قبل أبيه. وسئل رباح القيسي عن سبب تسمية عتبة بالغلام فقال: كان نصفاً من الرجال، ولكنّا كنّا نسميه الغلام لأنه كان في العبادة غلامَ رهان، استشهد وقتل في قرية الحباب في غزو الروم، ترجمه مفصلاً أبو نعيم في الحلية (ج ٦، ص ٢٢٦ إلى ٢٣٨).

خامساً: حبيب الفارسي: قال أبو نعيم في الحلية (ج ٦، ص

١٤٩): أبو محمد الفارسي من ساكني البصرة، كان صاحب المكرمات، مُجاب الدعوات، وكان سبب إقباله على الآجلة وانتقاله عن العاجلة، حضوره مجلس الحسن بن أبي الحسن، فوقعت موعظته من قلبه، وتصدق بأربعين ألفاً في أربع دفعات.

سادساً: مالك بن دينار أبو يحيى، وصفه أبو نعيم في الحلية بقوله: العارف النظَّار، الخائف الجبَّار. كان لشهوات الدنيا تاركاً، وللنفس عند غلبتها مالكاً. وقد أطال في ذكره (ج ٢، من ص ٣٥٧ إلى ص ٣٨٩).

استجابة دعائه عليه السلام

عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ قَالَ: كُنْتُ حَاجًّا وَجَمَاعَةَ عُبَّادِ الْبَصْرَةِ مِثْلَ أَيُّوبَ السِّجِسْتَانِيِّ وَصَالِحِ الْمُرِّيِّ وَعُتْبَةَ الْغُلَامِ وَحَبِيبِ الْفَارِسِيِّ وَمَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، فَلَمَّا أَنْ دَخَلْنَا مَكَّةَ رَأَيْنَا الْمَاءَ ضَيِّقاً، وَقَدِ اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْعَطَشُ لِقِلَّةِ الْغَيْثِ، فَفَزِعَ إِلَيْنَا أَهْلُ مَكَّةَ وَالْحُجَّاجُ يَسْأَلُونَا أَنْ نَسْتَسْقِيَ لَهُمْ، فَأَتَيْنَا الْكَعْبَةَ وَطُفْنَا بِهَا ثُمَّ سَأَلْنَا اللهَ خَاضِعِينَ مُتَضَرِّعِينَ بِهَا فَمُنِعْنَا الْإِجَابَةَ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا نَحْنُ بِفَتًى قَدْ أَقْبَلَ قَدْ أَكْرَبَتْهُ أَحْزَانُهُ، وَأَقْلَقَتْهُ أَشْجَانُهُ، فَطَافَ بِالْكَعْبَةِ أَشْوَاطاً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: **يَا مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ، وَيَا ثَابِتُ الْبُنَانِيُّ، وَيَا أَيُّوبُ السِّجِسْتَانِيُّ، وَيَا صَالِحُ الْمُرِّيُّ، وَيَا عُتْبَةُ الْغُلَامُ، وَيَا حَبِيبُ الْفَارِسِيُّ، وَيَا سَعْدُ وَيَا عُمَرُ، وَيَا صَالِحُ الْأَعْمَى، وَيَا رَابِعَةُ، وَيَا سَعْدَانَةُ، وَيَا جَعْفَرُ بْنَ سُلَيْمَانَ**، فَقُلْنَا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا فَتًى، فَقَالَ: **أَمَا فِيكُمْ أَحَدٌ يُحِبُّهُ الرَّحْمَنُ؟** فَقُلْنَا: يَا فَتًى! عَلَيْنَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْهِ الْإِجَابَةُ، فَقَالَ: **أَبْعِدُوا مِنَ الْكَعْبَةِ، فَلَوْ كَانَ فِيكُمْ أَحَدٌ يُحِبُّهُ الرَّحْمَنُ لَأَجَابَهُ**. ثُمَّ أَتَى الْكَعْبَةَ فَخَرَّ سَاجِداً فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: **سَيِّدِي بِحُبِّكَ لِي إِلَّا سَقَيْتَهُمُ الْغَيْثَ**، قَالَ: فَمَا اسْتَتَمَّ

الْـكَلامَ حَتَّى أَتَاهُمُ الْغَيْثُ كَأَفْوَاهِ الْقِـرَبِ، فَقُلْتُ: يَا فَتَى! مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ أَنَّـهُ يُحِبُّكَ؟ قَالَ: لَوْ لَمْ يُحِبَّنِي لَمْ يَسْـتَزِرْنِي، فَلَمَّا اسْـتَزَارَنِي عَلِمْـتُ أَنَّهُ يُحِبُّنِي، فَسَأَلْتُهُ بِحُبِّهِ لِي فَأَجَابَنِي. ثُمَّ وَلَّى عَنَّا وَأَنْشَأَ يَقُول:

مَـنْ عَـرَفَ الـرَّبَّ فَلَـمْ تُغْنِه مَعْرِفَةُ الـرَّبِّ فَـذَاكَ الشَّقِي
مَـا ضَرَّ فِي الـطَّـاعَـةِ مَـا نَـالَـهُ فِي طَـاعَـةِ اللهِ وَمَـا ذَا لَقِي
مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِغَيْرِ التُّقَى وَالْـعِـزُّ كُـلُّ الْـعِزِّ لِلْمُتَّقِي

فَقُلْـتُ: يَـا أَهْـلَ مَكَّةَ! مَـنْ هَـذَا الْفَتَى؟ قَالُـوا: عَلِيُّ بْنُ الْحُسَـيْنِ عليه السلام بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ».

الْمِنْهَـالُ بْـنُ عَمْرٍو فِي خَـبَرٍ قَالَ: حَجَجْـتُ فَلَقِيتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَـيْنِ عليه السلام فَقَـالَ: **مَا فَعَـلَ حَرْمَلَةُ بْنُ كَاهِلٍ؟** قُلْتُ: تَرَكْتُهُ حَيًّـا بِالْكُوفَةِ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ الْحَدِيدِ، اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ النَّارِ.** فَتَوَجَّهْتُ نَحْـوَ الْمُخْتَـارِ فَإِذَا بِقَوْمٍ يَرْكُضُونَ وَيَقُولُونَ: الْبِشَـارَةُ أَيُّهَا الأَمِيرُ، قَدْ أُخِذَ حَرْمَلَةُ، وَقَدْ كَانَ تَوَارَى عَنْهُ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَحَرْقِهِ بِالنَّارِ.

وَكَانَ زَيْـنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام يَدْعُو فِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْ يُرِيَهُ اللهُ قَاتِلَ أَبِيهِ مَقْتُـولاً، فَلَمَّا قَتَلَ الْمُخْتَارُ قَتَلَةَ الْحُسَـيْنِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَـلامُهُ عَلَيْهِ بَعَثَ بِـرَأْسِ عُبَيْـدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ وَرَأْسِ عُمَرَ بْنِ سَـعْدٍ مَعَ رَسُـولٍ مِـنْ قِبَلِهِ إِلَى زَيْـنِ الْعَابِدِينَ، وَقَالَ لِرَسُولِهِ: إِنَّهُ يُصَـلِّي مِنَ اللَّيْـلِ وَإِذَا أَصْبَحَ وَصَلَّى صَلَاةَ الْغَدَاةِ هَجَعَ ثُمَّ يَقُومُ فَيَسْتَاكُ وَيُؤْتَى بِغَدَائِهِ، فَإِذَا أَتَيْتَ بَابَهُ فَاسْأَلْ عَنْـهُ، فَإِذَا قِيلَ لَـكَ: إِنَّ الْمَائِدَةَ وُضِعَـتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْـتَأْذِنْ عَلَيْهِ وَضَعِ الرَّأْسَـيْنِ عَلَى مَائِدَتِهِ، وَقُلْ لَهُ: الْمُخْتَارُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّـلامَ، وَيَقُولُ لَكَ: يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ! قَدْ بَلَّغَكَ اللهُ ثَارَكَ. فَفَعَلَ الرَّسُولُ ذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَى زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام الرَّأْسَيْنِ عَلَى مَائِدَتِهِ خَرَّ سَاجِداً، وَقَالَ:

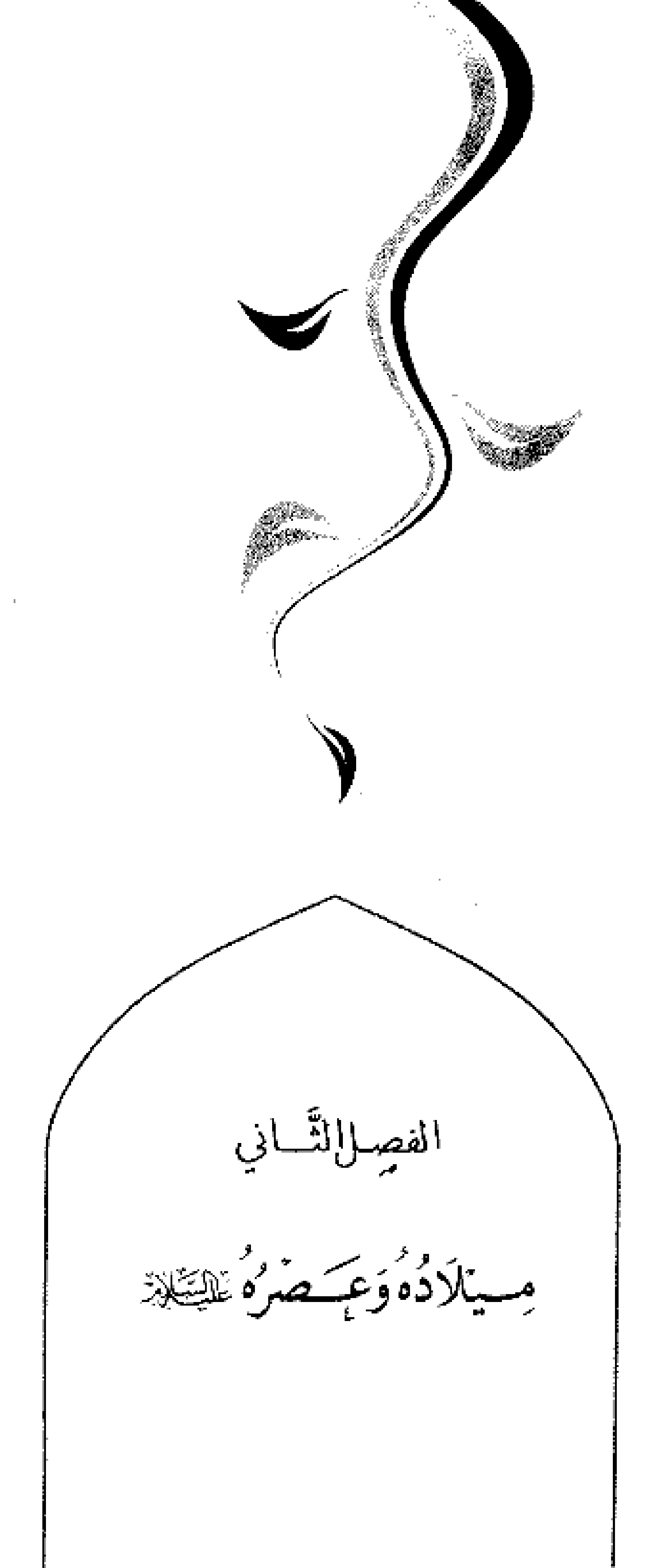
«الحَمْدُ للهِ الَّذي أَجَابَ دَعْوَتي، وَبَلَّغَني ثَأْري مِنْ قَتَلَةِ أَبي». وَدَعا لِلْمُخْتَارِ وَجَزَاهُ خَيْراً[1].

وحينما نعرف جانباً من شخصية الإمام زين العابدين عليه السلام، ومدى تفانيه في ذات الله عزّ وجلّ، وذوبانه في تيار حبّه سبحانه، وخلوصه من شوائب المصلحة المادية؛ نعرف -حينئذٍ- جانباً من حكمة الولاية، وذلك التأكيد الشديد عليها في نصوص الإسلام. فمثل ولاية الإمام السجاد تصلح نفس الإنسان وتسامى في معارج الكمال، وإن ولاية الأنبياء والأوصياء تصبغ شخصية المجتمع المؤمن بصبغة الإيمان، وتُيسِّر له العمل بتعاليم أولياء الله تعالى، والسعي وراء تمثيل شخصياتهم الإلهية، كما أن تلك الولاية تسقي روضة حب الله في أفئدتهم، وتصونها من الذبول، لأن حب أولياء الله يفيض من حب الله كما تفيض الروافد من نبع زخّار، بل إن حب أولياء الله هو انبساط لحب الله، وأمثلة له وشواهد عليه!. وكيف يمكن أن يدّعي أحد أنه يحب الله ثم لا يحب من هام في حب الله حتى بلغ ما بلغه الإمام زين العابدين عليه السلام من العبادة والتهجد؟!

أَوَلَمْ يقل ربُّنا العزيز: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2].

فلنغترف من نبع حب الله فيضاً، وذلك بِحُبِّ أوليائه أكثر مما مضى، حتى نُطَهِّر أفئدتنا من أهواء الدنيا ومن أدران حب أهلها اللئام.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٥١ - ٥٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣١.



الفصل الثاني

ميلاده وعصره عليه السلام



كان الإمام زين العابدين عليه السلام في قلب الأحداث السياسية التي ساهمت في تكوين الأمة الإسلامية، ورَسْمِ ملامحها التاريخية.

لقـد وُلِدَ عليه السلام في بيت جدِّه علي أمـير المؤمنين عليه السلام، من نجله الكريم الإمام الحسـين عليه السلام، عندما كان الإمام يخـوض صراعاً مريراً مع أعداء الإسـلام المتستِّرين في الجمل وصِفين والنهروان، وكان والده الحسـين عليه السلام قائـداً في جيش الإسـلام يومئذٍ، كـما كان مضطلعاً مع والده بإدارة أمور المسلمين.

ولا ريـب في أن تلـك الأحداث الرهيبة التـي لازالت أصداؤها تُدَوِّي في واقعنا حتى اليوم، سـاهمت في صنع شـخصيـة الوليد الكريم الذي استقبله بيت الإمامة في عام (٣٥) للهجرة الكريمة، عندما كانت الأمة الإسـلامية تعيـش غلياناً انتهى بمقتل الخليفـة الثالـث، وما أعقبه من فتنة بني أمية في المطالبة بدمه.

أُمُّ السجاد عليه السلام:

جاء في كتب التاريخ أن والدة الإمام السـجاد عليه السلام هي (شـهر بانو) بنت آخر ملوك الفرس، من سلسلة الساسانية (يزدجرد).

وكانت الأمبراطورية الفارسية -كأي نظام جاهلي آخر- قائمةً على الطبقية والظلم والعدوان، فلما أشرق نور الإسلام تهاوت كما تتهاوى شجرة منخورة أمام إعصارٍ عنيف، وانهزم الأمبراطور من بلد إلى آخر حتى قُتل غيلةً في خراسان، وبقيت عائلته في تلك البلاد حتى فُتحت على عهد عثمان في عام (٣٢) وجيء بهم إلى المدينة المنورة، فلما مثلوا أمام الخليفة الثالث وحضر كبار الأصحاب، أشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الخليفة بإكرامهم ورغّبه في ذلك بذكر حديث الرسول صلى الله عليه وآله: «**ارْحَمُوا عَزِيْزَ قَوْمٍ ذَلَّ**»[1].

ولعل الحكمة في ذلك كانت استمالة الشعوب التي لم تزل تحترم قيادتها وكرماءها، لكيلا تبقى بينهم وبين قبول الإسلام حواجز الحقد والضغينة.

فلما تريَّث الخليفة في ذلك قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَعْتَقْتُ مِنْهُمْ لِوَجْهِ اللهِ حَقِّي وَحَقَّ بَنِي هَاشِم**»[2].

وتبعه في ذلك الأنصار والمهاجرون، فلم ير الخليفة بدًّا من قبول الأمر، فأشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأن تُترك كلُّ واحدةٍ لاختيار الزوج المناسب، فاختارت إحدى بنات يزدجرد الحسين عليه السلام، في حين اختارت الثانية الحسن، وقيل: محمد بن أبي بكر. فحملت شهر بانو في تلك السنة. وفي منتصف شهر جمادي الأولى لعام ثلاث وثلاثين من الهجرة ولدت ابنها البكر، وماتت وهي في نفاسها، فتكفلته واحدة من أمهات الأولاد عند الإمام الحسين عليه السلام، فنشأ زين العابدين في كنفها،

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٤٤.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٥، ص٣٣٠.

وكان يزعم الناس أنها أُمه في حين أنها كانت مولاته[1].

وفي السابعة من عمره استُشهد جدُّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في محراب مسجد الكوفة. وبعد أشهر عاد أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة حيث ترعرع علي بن الحسين عليه السلام في ربوعها المضوَّعة بعطر الرسول صلى الله عليه وآله، فلما بلغ السابعة عشر اغتيل بالسم عمّه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

وعاش الإمام السجاد عليه السلام يمارس في ظلال والده الإمام الحسين عليه السلام دور الريادة في مواجهة الردة الجاهلية الأموية.

وبالرغم من قلة المعلومات التي تُفصّل طبيعة هذه المواجهة المُتسمة بالهدوء وربما السرّية، فإن ما بقي لنا من خُطب الإمام الحسين عليه السلام ضد معاوية، وكتبه النارية الموجهة إليه، وما رافق عهد معاوية من انتفاضات بقيادة أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله الموالين لأهل بيته عليهم السلام، أقول: إن ما بقي لنا من ذلك يُعطينا صورة كافية للحالة السياسية التي عاشها الإمام السجاد أيام والده عليه السلام، حينما كان في مقتبل العمر.

بعد عاشوراء:

ومهما كانت قوة الحركة السياسية في عهد معاوية، فإنها كانت ناراً تحت رماد الهدوء السياسي، الذي فرضه معاوية على الساحة بدهائه المعروف، وبوسائله المختلفة، من توزيع الأموال والمناصب ثمناً

(١) اعتمدنا في بعض ما ذكرنا على رواية مأثورة عن الإمام الرضا عليه السلام في بحار الأنوار ج ٤٦، ص ٨، حيث ذكر أن حادثة أسر بنات يزدجرد كانت في عهد عثمان خلافاً لبعض الروايات التي ترى أنها وقعت في عهد عمر، وهي بعيدة عن السياق التاريخي لمجمل الأحداث كفتح خراسان وتاريخ ولادة الإمام زين العابدين وما أشبه.

لسكوت الطامعين، وتوزيع العسل المسموم على الأحرار. وقد اشتهر عنه القول: إن لله جنوداً من عسل.

وهكذا كانت التيارات السياسية تنتظر بفارغ الصبر هلاك معاوية. ومن هنا أصبحت واقعة كربلاء صاعقاً فجّر الثورات في آفاق العالم الإسلامي، لأنها جاءت في الوقت المناسب بعد هلاك وريث أبي سفيان، داهية العرب، فافتتحت عصر الثورات المناهضة للجاهلية المقنّعة.

فبعد شهادة السبط الشهيد عليه السلام انتفضت مدينة الرسول صلى الله عليه وآله، وخلعت يزيد بن معاوية، وقام عبد الله بن الزبير بمكة يطالب بالخلافة، وثارت الكوفة بقيادة سليمان بن صرد، ثم بقيادة المختار. وهكذا أصبحت الثورات والانتفاضات صبغة الحياة السياسية في البلاد الإسلامية، وأسلوباً شاخصاً لمواجهة الطغيان والفساد. ولذلك فإننا نستطيع أن نُسمي عهد الإمام السجاد عليه السلام، خصوصاً في بداياته -منذ واقعة عاشوراء- عهد الثورات والانتفاضات.

بيد أن الثورة بذاتها ليست هدفاً مقدساً، وإنما الهدف المقدس هو تلك القيم المتسامية التي تُحرّكُها، وإلّا فإن ضررها يكون أكبر من نفعها. أوَلَيست الثورة بذاتها حالة تمرد على النظام وتُعكّر جَوَّ الأمن، وتُثير الاضطراب، وتُريق الدماء؟ بلى، فهي -إذاً- حالة استثنائية لا يحمدها العقلاء، ولكنها إنما تكتسب شرعيتها وقدسيتها من الغايات النبيلة التي تهدف إليها.

فلأنها تُخرج الناس من ظلمات الركود والجهل والظلم إلى نور النشاط والعقل والعدالة، أصبحت الثورة -بمعناها الشامل- صبغة حياة الأنبياء والأوصياء وعباد الله الأبرار.

ولأنها تُزيل عن قلوب الناس رين الغفلة واللامبالاة، وعن تجمعاتهم سحابة الظلم والاعتداء، وعن مجتمعهم كابوس الطغيان والفساد، فقد أصبحت مسؤولية كلِّ حرٍّ أبيٍّ، ووسامَ حقٍّ لكلِّ ذي كرامة وشرف.

ومن هنا ركَّزت نصوص الوحي على هدف الثورات ضمن تعبير «القيام لله»، وحيث قال ربُّنا سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾[1].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾[2].

وهكذا كانت الحالة الثورية التي عمّت آفاق البلاد الإسلامية ببركة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، بحاجة إلى هوية وصبغة، وروح، وقيم، لكي تتكرس في ضمير الأمة، ولا تُصبح كشعلة السعف أو زوبعة الفنجان لا تلبث أن تتلاشى، ولكي تتخذ مساراً رساليًّا مستقيماً، ولا تُصبح أداةً بيد كلِّ طامع أو متهوِّر كأمثال عبد الله بن الزبير وكغيره من الذين طفقوا يستفيدون منها بأبشع صورة.

فهذا ابن الزبير يصعد المنبر بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام فيُثني عليه ويلعن قاتله ويخلع يزيد. ولكن عندما أحس باستتباب الأمر له أظهر عداءً شديداً لآل البيت عليهم السلام، حتى أنه ترك الصلاة على جدهم النبي صلى الله عليه وآله، لكيلا يشمخوا بأنوفهم عند ذكره حسب قوله!

فمن أجل ألّا تُصبح الحالة الثورية مطيّةً لكل من يهوى السلطة

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

أو يبحث عن مجد مثل ابن الزبير، جاء الإمام السجاد عليه السلام يُعطي لتلك الحالة هويّتها الرسالية، وصبغتها الإلهية، وروعتها التي تمثّلت في قيم الوحي، وسبيلها القويم الذي رسمته شريعة الله تعالى.

ولعل هذا أعظم دور قيادي قام به الإمام السجاد عليه السلام. ولم يكن هذا الدور نابعاً من حالة مزاجية عند الإمام عليه السلام، أو لأنه شَاهَدَ مثلاً وقائع الطف الفظيعة، فاصطبغت شخصيته بها، ولم يملك إلّا البكاء والتفجّع والتبتّل والضراعة.

أجل، إن تلك الحادثة كان لها أثرها البالغ في شخصيته الكريمة، ولكن الإمام المعصوم عليه السلام يقوم بواجبه الإلهي، وليس بما تمليه حالته النفسية. والشاهد على ذلك أن الإمام زين العابدين عليه السلام، الذي اصطبغت شخصيته الكريمة بالتهجد والبكاء، حمل رسالة عاشوراء بعد شهادة والده، هو وعمّته عقيلة الهاشميين زينب عليها السلام. وما أدراك ما رسالة عاشوراء!. إنها رسالة الجرح الثائر، والدم المنتصر، والألم المتمرد، والانتفاضة التي لا تهدأ. أوَما سمعت خطبته اللاهبة في أهل الكوفة بعد ثلاثة أيام من فاجعة الطف كيف أثارت فيهم دفائن العطف، ونفضت عن أفئدتهم غبار الرهبة والتردد، فقالوا له: مُرْنَا بأمرك فإنّا مطيعون لأمرك، لنأخذنّ يزيد ونتبرأ ممن ظلمك وظلمنا.

ولكنه قال لهم: «**مَسْأَلَتِي أَلَّا تَكُونُوا لَنَا وَلَا عَلَيْنَا**»[1].

وها نحن نستمع معاً إلى فقرات من تلك الخطبة الثائرة:

«أَوْمَأَ إِلَى النَّاسِ أَنِ اسْكُتُوا فَسَكَتُوا، فَقَامَ قَائِماً، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى

(١) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١١٢.

عَلَيْهِ، وَذَكَرَ النَّبِيَّ وَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ! مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ، أَنَا ابْنُ الْمَذْبُوحِ بِشَطِّ الْفُرَاتِ مِنْ غَيْرِ ذَحْلٍ وَلَا تِرَاتٍ، أَنَا ابْنُ مَنِ انْتُهِكَ حَرِيمُهُ وَسُلِبَ نَعِيمُهُ وَانْتُهِبَ مَالُهُ وَسُبِيَ عِيَالُه. فَبِأَيَّةِ عَيْنٍ تَنْظُرُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله إِذْ يَقُولُ لَكُمْ: قَتَلْتُمْ عِتْرَتِي وَانْتَهَكْتُمْ حُرْمَتِي فَلَسْتُمْ مِنْ أُمَّتِي. ثم بكى عليه السلام»[1].

وعندما أُدخل أسيراً على ابن زياد الطاغية الذي زعم أنه انتصر على الخط الرسالي وإلى الأبد، تحدّاه الإمام عليه السلام وقال له: «**سَوْفَ نَقِفُ وَتَقِفُوْنَ، وَنُسْأَلُ وَتُسْأَلُوْنَ، فَأَيَّ جَوَابٍ تَرُدُّوْنَ، وَبِخِصَامِ جَدِّنَا إِلَى النَّارِ تُقَادُوْنَ**»[2].

فلما همّ ابن زياد بقتله قال له الإمام عليه السلام: «**أأنت تُهَدِّدُنِي بِالْقَتْلِ؟. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْقَتْلَ لنا عَادَةٌ، وَكَرَامَتَنَا الشَّهَادَةُ؟**».

وكان موقفه من الطاغية يزيد، ذلك المجرم الذي لم يدع جريمة شنيعة إلّا وارتكبها في سِنِيِّ حكمه القصيرة، كان موقفه قمة في التحدّي ومثلاً أعلى في الجهاد بالكلمة الرافضة.

ومرة أخرى حينما نال خطيب يزيد في الجامع الأموي من آل بيت الرسول تصدّى له الإمام السجاد عليه السلام قائلاً: «**وَيْلَكَ أَيُّهَا الخَاطِبُ! اشْتَرَيْتَ مَرْضَاةَ المَخْلُوقِيْنَ بِسَخَطِ الخَالِقِ، فَتَبَوَّءْ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ**»[3].

---

(١) ناسخ التواريخ، ج ٢، ص ١٤٠.
(٢) ناسخ التواريخ، ج ٢، ص ١٤١.
(٣) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣٧.

ثم التفت إلى يزيد واستأذنه بصعود المنبر، فلم يجد يزيد بدًّا من ذلك، فلما تشرَّف به المنبر ألقى تلك الخطبة البليغة التي لا يزال صداها يدوّي في الآفاق إلى اليوم، وإلى أبد الآبدين.

وحينما هدم طاغية العراق الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة تصدّى له الإمام عليه السلام وقال: «**يَا حَجَّاجُ عَمَدْتَ إِلَى بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فَأَلْقَيْتَهُ فِي الطَّرِيقِ وَانْتَهَبْتَهُ، كَأَنَّكَ تَرَى أَنَّهُ تُرَاثٌ لَكَ، اصْعَدِ الْمِنْبَرَ وَأَنْشِدِ [انْشُدِ] النَّاسَ أَلَّا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئاً إِلَّا رَدَّهُ**»(1).

وهكذا كانت سجية الإمام الشجاعة، ولكن الظروف التي عاشها لم تكن تنقصها الثورة والشجاعة، لأن واقعة الطف قد شحنت ضمير الأمة بالشجاعة بما يكفيها لقرون متمادية، وربما إلى الأبد. إنما كانت بحاجة إلى صبغة إيمانية تسمو بالثورة إلى أهدافها القيّمة، وهكذا اتّجه الإمام عليه السلام إليها.

فزعم السذج من الناس أن ذلك كان مزاجاً شخصيًّا، كما زعموا مثل ذلك في الأنبياء. فمنهم من قال: إن تضحية إبراهيم وصبر نوح، ووحدة موسى وزهد عيسى وخُلق محمد عليهم السلام، وسائر الصفات المتميزة لكل نبيٍّ من رُسل الله عليهم السلام، إنما كانت سمات شخصياتهم، وحالاتهم المزاجية. ناسين أن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وأنه لا يجعل رسالته إلّا حيث تقتضي حكمته، وأن تلك الصفات التي تجلّت بهم كانت ضرورية للظروف التي عاشوها والبشر الذين تعاملوا معهم. حتى ولو افترضنا جدلاً أن نبيًّا وُضِعَ في مقام نبيٍّ آخر لتبنّى

(1) عوالم العلوم، ج ١٨، ص ١٧٩.

سلوكه وعمل بمنهاجه، بلا اختلاف قليل أو كثير.

وكالأنبياء يكون الأئمة، فلكل واحد منهم صحيفة يعمل بها، وقد كانت مرسومة ضمن السياق التاريخي الذي عاشه. وحسب تلك الصحيفة الإلهية عمل الإمام السجاد عليه السلام، الذي كانت حياته قمة في العبادة والضراعة، وبثّ روح الإيمان في المجتمع، وتربية رجال متميزين في الزهد والتهجد، من أمثال: الزهري، وسعيد بن جبير، وعمر بن عبد الله السبيعي، وآخرين.

وهكذا رسمت صحيفة السجاد عليه السلام منهاج إمامته فيما يبدو في التركيز على الجانب الروحي، على أنه كان في طليعة مهامّ سائر الأئمة عليهم السلام، إلّا أن الحاجة إليه كانت في عهد الإمام زين العابدين عليه السلام أشد، ولذلك كان التركيز عليه أعظم. ولكن السؤال: كيف اضطلع الإمام بهذه المهمة؟. وأي منهاج اتّبعه لبلوغ هذا الهدف العظيم؟

منهاج الإمام عليه السلام في التربية الروحية:

ممّا لا شك فيه أن أئمة الهدى هم مشاعل الحق للأجيال في كل عصر ومصر، ولكن لأن الظروف مختلفة من جيل لآخر، ومن مصر لمصر ثانٍ، ولأن الله قد ختم بالمصطفى رسالاته، وبأوصيائه خلفاءه المعصومين، فإن حكمته اقتضت أن تكون سيرة كل واحد منهم متميزة بهدى ومنهاج، ليكون مجمل سيرهم المتنوعة ذخيرة غنية يرجع الناس إليها ليأخذوا منها ما يتناسب وظروفهم الخاصة.

وكانت سيرة الإمام علي بن الحسين عليه السلام الإيمانية هي المنهاج المتناسب كليًّا وظروف مشابهة لظروفنا في بعض البلاد، حيث حبانا الله

سبحانه بحالة ثورية تحتاج إلى المزيد من الروح الإيمانية حتى لا تخرج الحركة عن مسارها الديني، ولا تفسد السياسة ومصالحها وحتمياتها النقاء الإيماني الذي يحتاجه العاملون في سبيل الله.

فماذا كانت سيرته، وما هو برنامجه؟

أولاً: كان عباد الله المخلصون دعاة إلى الله بسلوكهم قبل أن يكونوا دعاةً بألسنتهم، فما أمروا الناس بشيء إلَّا وسبقوهم إليه.

وكانت حياة الإمام السجاد عليه السلام لوحة إيمانية نقية، وقد تحدَّثنا عنها في فصل آخر. وقال عنه جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي الشهير: ما رأيت في أولاد الأنبياء شخصاً كعلي بن الحسين عليه السلام.

ثانياً: تربية جيل من العلماء الربانيين الذين ربوا بدورهم علماء وثائرين وعُبّاداً صالحين. وهكذا تماوجت تعاليم الإمام عبر النفوس الزكية في حلقات مترامية كالصخرة العظيمة تُلقى في بحر واسع.

وكان في هؤلاء الرجال العرب والموالي، ولكلٍّ قصة وتاريخ. فَدَعْنا نتزود من عبق سيرة حواريي الإمام عليه السلام الذين كان أكثرهم من التابعين:

ألف: كان سعيد بن جبير من أولئك التابعين الذين اقتبس من الإمام زين العابدين عليه السلام روح الإيمان. كان مثلاً في العبادة والاجتهاد، وكان يسمى بـ(جهيد العلماء)، ويقرأ القرآن في ركعتين، وبلغ من علمه أنه اشتهر بين العلماء أنه ما على الأرض أحد إلَّا وهو محتاج إلى علمه[1].

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٣٧.

واستشهد سعيد على يد طاغية العراق الحجاج. ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ كَانَ يَأْتَمُّ بِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَكَانَ عَلِيٌّ يُثْنِي عَلَيْهِ. وَمَا كَانَ سَبَبُ قَتْلِ الْحَجَّاجِ لَهُ إِلَّا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَكَانَ مُسْتَقِيماً**»[1].

ومن خلال حوار ساخن جرى بينه وبين جزار بني أمية الزنيم نعرف مدى استقامة هذا العالم الرباني.

وَذُكِرَ «أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ قَالَ: أَنْتَ شَقِيُّ بْنُ كَسِيرٍ.

قَالَ: أُمِّي كَانَتْ أَعْرَفَ بِي سَمَّتْنِي سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ».

وقيل: إنه سأله: كيف يُفضّل أن يقتله؟ قال: اختر لنفسك، قال وكيف ذلك؟. قال: لأنه لا تقتلني بقتلة إلّا وأقتلك بها يوم القيامة.

باء: وكان عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني الذي يكنى بـ(أبي إسحاق) من ثقاة الإمام السجاد عليه السلام، وبلغ من عبادته أن قيل عنه لم يكن في زمانه أعبد منه، حيث كان يختم القرآن في كل ليلة. وقد صلّى أربعين سنة صلاة الفجر بوضوء صلاة العتمة، وكان مُحدِّثاً لا أوثق منه في الرواية عند الخاص والعام[2].

جيم: وكان الزهري عاملاً في بلاط الأمويين، فعاقب رجلاً فمات في العقوبة، فارتاع لذلك فخرج على وجهه هائماً، واعتكف في غارٍ تسع سنين، فرآه الإمام السجاد عليه السلام وهو في طريقه إلى الحج، فقال له:

«**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ قُنُوطِكَ مَا لَا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ ذَنْبِكَ،**

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٣٦.

(٢) عوالم العلوم، ج ١٨، ص ٢٨١.

فَابْعَثْ بِدِيَةٍ مُسَلَّمَةٍ إِلَى أَهْلِهِ وَاخْرُجْ إِلَى أَهْلِكَ وَمَعَالِمِ دِينِكَ».

فقال له: فَرَّجْتَ عَنِّي يَا سَيِّدِي، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَتَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِه. وَرَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ، وَلَزِمَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ، وَكَانَ يُعَدُّ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ بَعْضُ بَنِي مَرْوَانَ: يَا زُهْرِيُّ! مَا فَعَلَ نَبِيُّكَ، يَعْنِي عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ[1].

ومن هذه الرواية نعرف كيف كان الله يهدي الناس بالإمام حتى يصبح عامل بني أمية من كبار العلماء المعروفين عند كل الفرق الإسلامية كالزهري.

دال: وكان سعيد بن المسيب بن حزن من كبار التابعين الذين ربّاهم أمير المؤمنين عليه السلام، والتزم خط آل البيت عليهم السلام حتى كان من صفوة أصحاب الإمام السجّاد عليه السلام. وعنه قال: «**سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآثَارِ**»[2].

وقد قَالَ رَجُلٌ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: مَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَوْرَعَ مِنْ فُلَانٍ (وذكر اسم رجل من الناس) قَالَ: فَهَلْ رَأَيْتَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ سعيد: مَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَوْرَعَ مِنْهُ[3].

ومثل هؤلاء طائفة كبيرة من كبار علماء الإسلام الذين أخذوا عن الإمام الزهد والتقوى، والتفسير والحكمة والفقه، حتى قال الشيخ المفيد: «إنه روى عنه الفقهاء من العلوم ما لا يحصى كثرةً، وحُفِظَ عنه من المواعظ والأدعية وفضائل القرآن والحلال والحرام والمغازي والأيام ماهو مشهور

(١) عوالم العلوم، ج ١٨، ص ٢٨٢.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٣٣.
(٣) عوالم العلوم، ج ١٨، ص ٢٨٣.

بين العلماء». وقال ابن شهراشوب: «قلّما يوجد كتاب زهد وموعظة لم يذكر فيه: قال علي بن الحسين، أو قال زين العابدين عليه السلام»[1].

وكان شديد الاحترام لطلبة العلوم الذين كانوا يتوافدون عليه في المدينة من أقطار العالم الإسلامي، ويرى أنهم وصية رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان العلماء يستلهمون من سلوكه الهدى والورع قبل أن يتلقوا من منطقه العلم والمعرفة، ومن لا يستلهم نور الله من تلك الطلعة الربانية، من العين التي تفيض من خشية الله، والجبهة التي عليها ثفنات من أثر السجود، من ذلك اللسان الذي لا ينِي يذكر الله عزَّ وجلَّ.. وبالتالي من تلك السيرة التي يشعُّ منها نور الله تبارك وتعالى.

يذكر عبد الله بن الحسن فيقول: «كَانَتْ أُمِّي فَاطِمَةُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ عليها السلام تَأْمُرُنِي أَنْ أَجْلِسَ إِلَى خَالِي عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَمَا جَلَسْتُ إِلَيْهِ قَطُّ إِلَّا قُمْتُ بِخَيْرٍ قَدْ أَفَدْتُهُ، إِمَّا خَشْيَةٌ للهِ تَحْدُثُ للهِ فِي قَلْبِي لِمَا أَرَى مِنْ خَشْيَتِهِ للهِ، أَوْ عِلْمٌ اسْتَفَدْتُهُ مِنْهُ»[2].

وكانت الفتوحات الإسلامية تطوي كل يوم بلداً جديداً، وتضم إلى الجسد الإسلامي عضواً جديداً، ولكنها كانت بحاجة إلى زخم إيماني يصهر مختلف الثقافات والتقاليد والمصالح في بوتقة الأُمة الواحدة.

وقد تصدى الإمام زين العابدين عليه السلام وأصحابه وأنصاره لهذه المسؤولية وبسبل شتى. فقد كان شديد الاحترام للموالي، وهم المنتمون إلى سائر الشعوب التي دخلت في الإسلام، بعد فتح البلاد لها، ولمّا تبلغ من المعارف الإلهية نصيباً كافياً.

(١) في رحاب أئمة أهل البيت، ج ٣، ص ١٩٦.
(٢) في رحاب أئمة أهل البيت، ج ٣، ١٩٦.

وكان كثير من الموالي من خيرة أصحاب الإمام عليه السلام. كما كان الإمام يتّبع منهجاً فريداً في زرع القيم الإلهية في أفئدة ثلة مختارة منهم، حيث كان يشتري العبيد ويتعامل معهم بأفضل طريقة ثم يُعتقهم ويزوّدهم بما يوفر لهم الحياة الكريمة، فيكون كل واحد منهم ركيزة إعلامية بين بني قومه. ولنقرأ معاً أخلاق الإمام في تعامله مع مواليه قبل أن نعرف كيف كان يعتقهم، فإن تلك الأخلاق الحسنة كانت مدرسة عملية لهم إلى جانب التوجيه المباشر.

روي عن عبد الرزاق (أحد الرواة) أنه قال: «جَعَلَتْ جَارِيَةٌ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام تَسْكُبُ المَاءَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ، فَسَقَطَ الْإِبْرِيقُ مِنْ يَدِ الْجَارِيَةِ عَلَى وَجْهِهِ فَشَجَّهُ، فَرَفَعَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام رَأْسَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[1]، فَقَالَ لَهَا: **قَدْ كَظَمْتُ غَيْظِي**، قَالَتْ: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[2]، قَالَ لَهَا: **قَدْ عَفَا اللهُ عَنْكِ**، قَالَتْ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3]، قَالَ: **اذْهَبِي فَأَنْتِ حُرَّةٌ لوجه الله عزّ وجلّ**»[4].

هكذا كان يتعامل مع الرقيق الذين اعتبرهم بعض الناس ذلك اليوم أن لهم طبيعة غير طبيعة الإنسان، فكيف لا يُؤثّر فيهم ذلك الخلق الرفيع؟.

ويروي بعضهم القصة التالية التي تعكس مستوىً رفيعاً من الصفح والسماحة والإيثار، تقول الرواية:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٤) في رحاب أئمة أهل البيت، ج ٣، ص ١٩٨.

كَانَ عِنْدَهُ عليه السلام قَوْمٌ أَضْيَافٌ فَاسْتَعْجَلَ خَادِمٌ لَهُ بِشِوَاءٍ كَانَ فِي التَّنُّورِ، فَأَقْبَلَ بِهِ الْخَادِمُ مُسْرِعاً فَسَقَطَ السَّفُّودُ مِنْهُ عَلَى رَأْسِ بُنَيٍّ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام تَحْتَ الدَّرَجَةِ فَأَصَابَ رَأْسَهُ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ لِلْغُلَامِ وَقَدْ تَحَيَّرَ الْغُلَامُ وَاضْطَرَبَ: «**أَنْتَ حُرٌّ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْتَمِدْهُ**» وَأَخَذَ فِي جِهَازِ ابْنِهِ وَدَفْنِهِ[1].

وكان له مَوْلًى يَتَوَلَّى عِمَارَةَ ضَيْعَةٍ لَهُ فَجَاءَ لِيَطَّلِعَهَا فَأَصَابَ فِيهَا فَسَاداً وَتَضْيِيعاً كَثِيراً، غَاضَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا رَآهُ وَغَمَّهُ، فَقَرَعَ الْمَوْلَى بِسَوْطٍ كَانَ فِي يَدِهِ وَنَدِمَ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ أَرْسَلَ فِي طَلَبِ الْمَوْلَى فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ عَارِياً وَالسَّوْطُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَظَنَّ أَنَّهُ يُرِيدُ عُقُوبَتَهُ فَاشْتَدَّ خَوْفُهُ، فَأَخَذَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ السَّوْطَ وَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ له:

«**يَا هَذَا! قَدْ كَانَ مِنِّي إِلَيْكَ مَا لَمْ يَتَقَدَّمْ مِنِّي مِثْلُهُ، وَكَانَتْ هَفْوَةً وَزَلَّةً، فَدُونَكَ السَّوْطَ وَاقْتَصَّ مِنِّي**».

فَقَالَ الْمَوْلَى: يَا مَوْلَايَ! وَاللهِ إِنْ ظَنَنْتُ إِلَّا أَنَّكَ تُرِيدُ عُقُوبَتِي وَأَنَا مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ، فَكَيْفَ أَقْتَصُّ مِنْكَ؟! قَالَ: «**وَيْحَكَ اقْتَصَّ**»، قَالَ: مَعَاذَ اللهِ! أَنْتَ فِي حِلٍّ وَسَعَةٍ. فَكَرَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ مِرَاراً وَالْمَوْلَى كُلَّ ذَلِكَ يَتَعَاظَمُ قَوْلَهُ وَيُجَلِّلُهُ، فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ يَقْتَصُّ قَالَ لَهُ: «**أَمَّا إِذَا أَبَيْتَ فَالضَّيْعَةُ صَدَقَةٌ عَلَيْكَ**»[2].

هذه نماذج من الخلق الكريم الذي اتّسم به سلوك الإمام عليه السلام مع الموالي. وقد كان أسلوب عتق الإمام لهم متميزاً يرويه التاريخ بجلال وإعجاب. فقد روى ابن طاووس في كتاب شهر رمضان

---

(١) في رحاب أئمة أهل البيت، ج ٣، ص ١٩٩.

(٢) في رحاب أئمة أهل البيت، ج ٣، ص ١٩٩.

المعروف بالإقبال، بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ لَا يَضْرِبُ عَبْداً لَهُ وَلَا أَمَةً، وَكَانَ إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ وَالْأَمَةُ يَكْتُبُ عِنْدَهُ: أَذْنَبَ فُلَانٌ، أَذْنَبَتْ فُلَانَةُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَلَمْ يُعَاقِبْهُ فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِمُ الْأَدَبُ حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ دَعَاهُمْ وَجَمَعَهُمْ حَوْلَهُ ثُمَّ أَظْهَرَ الْكِتَابَ، ثُمَّ قَالَ: يَا فُلَانُ! فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا وَلَمْ أُؤَدِّبْكَ، أَتَذْكُرُ ذَلِكَ؟

فَيَقُولُ: بَلَى يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ. حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى آخِرِهِمْ وَيُقَرِّرُهُمْ جَمِيعاً.

ثُمَّ يَقُومُ وَسْطَهُمْ وَيَقُولُ لَهُمُ: ارْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ وَقُولُوا: يَا عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ! إِنَّ رَبَّكَ قَدْ أَحْصَى عَلَيْكَ كُلَّ مَا عَمِلْتَ كَمَا أَحْصَيْتَ عَلَيْنَا كُلَّ مَا عَمِلْنَا، وَلَدَيْهِ كِتَابٌ يَنْطِقُ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً مِمَّا أَتَيْتَ إِلَّا أَحْصَاهَا، وَتَجِدُ كُلَّ مَا عَمِلْتَ لَدَيْهِ حَاضِراً كَمَا وَجَدْنَا كُلَّ مَا عَمِلْنَا لَدَيْكَ حَاضِراً؛ فَاعْفُ وَاصْفَحْ كَمَا تَرْجُو مِنَ الْمَلِيكِ الْعَفْوَ، وَكَمَا تُحِبُّ أَنْ يَعْفُوَ الْمَلِيكُ عَنْكَ فَاعْفُ عَنَّا تَجِدْهُ عَفُوّاً وَبِكَ رَحِيماً وَلَكَ غَفُوراً، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً، كَمَا لَدَيْكَ كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ عَلَيْنَا لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً مِمَّا أَتَيْنَاهَا إِلَّا أَحْصَاهَا، فَاذْكُرْ يَا عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ ذُلَّ مُقَامِكَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكَ الْحَكَمِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ وَيَأْتِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً وَشَهِيداً، فَاعْفُ وَاصْفَحْ يَعْفُ عَنْكَ الْمَلِيكُ وَيَصْفَحْ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وَهُوَ يُنَادِي بِذَلِكَ عَلَى نفسك [نَفْسِهِ] وَيُلَقِّنُهُمْ وَهُمْ يُنَادُونَ مَعَهُ وَهُوَ وَاقِفٌ بَيْنَهُمْ يَبْكِي وَيَنُوحُ وَيَقُولُ:

«رَبِّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا أَنْ نَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنَا وَقَدْ عَفَوْنَا عَمَّنْ ظَلَمَنَا

كَـمَا أَمَرْتَ فَاعْفُ عَنَّا، فَإِنَّكَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنَّـا وَمِنَ المَأْمُورِينَ، وَأَمَرْتَنَا أَلَّا نَرُدَّ سَـائِلًا عَنْ أَبْوَابِنَا وَقَدْ أَتَيْنَاكَ سُـؤَّالًا وَمَسَـاكِينَ، وَقَـدْ أَنَخْنَا بِفِنَائِكَ وَبِبَابِكَ نَطْلُبُ نَائِلَكَ وَمَعْرُوفَكَ وَعَطَاءَكَ، فَامْنُنْ بِذَلِكَ عَلَيْنَا وَلَا تُخَيِّبْنَا فَإِنَّـكَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنَّا وَمِـنَ المَأْمُورِينَ. إِلَهِي كَرُمْتَ فَأَكْرِمْنِي إِذْ كُنْتُ مِنْ سُؤَّالِكَ، وَجُدْتَ بِالمَعْرُوفِ فَاخْلِطْنِي بِأَهْلِ نَوَالِكَ يَا كَرِيمُ".

ثُـمَّ يُقْبِلُ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ: قَدْ عَفَوْتُ عَنْكُـمْ، فَهَلْ عَفَوْتُمْ عَنِّي وَمَا كَانَ مِنِّي إِلَيْكُمْ مِنْ سُـوءِ مَلَكَةٍ، فَإِنِّي مَلِيكُ سُـوءٍ لَئِيمٌ ظَالِمٌ مَمْلُوكٌ لِمَلِيكٍ كَرِيمٍ جَوَادٍ عَادِلٍ مُحْسِنٍ مُتَفَضِّلٍ؟

فَيَقُولُونَ: قَدْ عَفَوْنَا عَنْكَ يَا سَيِّدَنَا وَمَا أَسَأْتَ.

فَيَقُـولُ لَهُـمْ: قُولُوا: اللَّهُمَّ اعْفُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَـيْنِ كَمَا عَفَا عَنَّا فَأَعْتِقْهُ مِنَ النَّارِ كَمَا أَعْتَقَ رِقَابَنَا مِنَ الرِّقِّ، فَيَقُولُونَ ذَلِكَ.

فَيَقُـولُ: اللَّهُـمَّ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، اذْهَبُوا فَقَـدْ عَفَـوْتُ عَنْكُمْ وَأَعْتَقْتُ رِقَابَكُمْ رَجَاءً لِلْعَفْوِ عَنِّي وَعِتْقِ رَقَبَتِي، فَيُعْتِقُهُمْ.

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْفِطْرِ أَجَازَهُمْ بِجَوَائِزَ تَصُونُهُمْ وَتُغْنِيهِمْ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَمَا مِنْ سَنَةٍ إِلَّا وَكَانَ يُعْتِقُ فِيهَا فِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مَا بَيْنَ الْعِشْرِينَ رَأْساً إِلَى أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ.

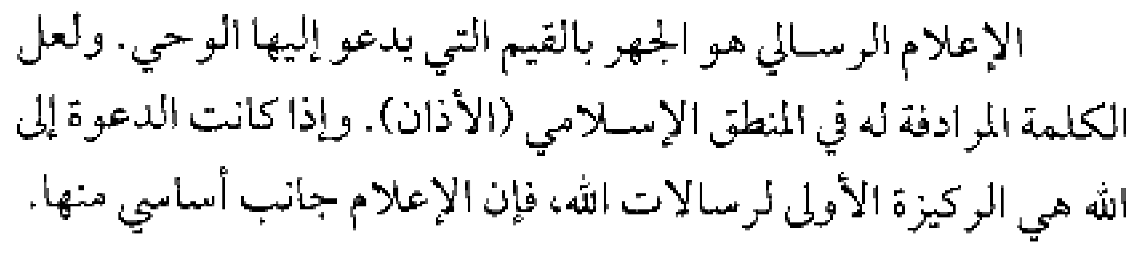
وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ للهِ تَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عِنْدَ الْإِفْطَارِ سَـبْعِينَ أَلْفَ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ كُلًّا [كُلٌّ] قَدِ اسْـتَوْجَبَ النَّارَ فَإِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ أَعْتَقَ فِيهَا مِثْلَ مَا أَعْتَقَ فِي جَمِيعِهِ، وَإِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَرَانِيَ اللهُ وَقَدْ أَعْتَقْتُ رِقَاباً فِي مِلْكِي فِي دَارِ الدُّنْيَا رَجَاءَ أَنْ يُعْتِقَ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ. وَمَا اسْـتَخْدَمَ خَادِماً فَوْقَ حَـوْلٍ، كَانَ إِذَا مَلَكَ عَبْـداً فِي أَوَّلِ

السَّنَةِ أَوْ فِي وَسَطِ السَّنَةِ إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْفِطْرِ أَعْتَقَ وَاسْتَبْدَلَ سِوَاهُمْ فِي الْحَوْلِ الثَّانِي، ثُمَّ أَعْتَقَ كَذَلِكَ، كَانَ يَفْعَلُ حَتَّى لَحِقَ بِاللهِ تَعَالَى، وَلَقَدْ كَانَ يَشْتَرِي السُّودَانَ وَمَا بِهِ إِلَيْهِمْ مِنْ حَاجَةٍ يَأْتِي بِهِمْ عَرَفَاتٍ فَيَسُدُّ بِهِمْ تِلْكَ الْفُرَجَ وَالْخِلَالَ فَإِذَا أَفَاضَ أَمَرَ بِعِتْقِ رِقَابِهِمْ وَجَوَائِزَ لَهُمْ مِنَ الْمَالِ».



الفصل الثالث

دور الإمام عليه السلام في الإعلام الرسالي



الإعلام الرسالي هو الجهر بالقيم التي يدعو إليها الوحي. ولعل الكلمة المرادفة له في المنطق الإسلامي (الأذان). وإذا كانت الدعوة إلى الله هي الركيزة الأولى لرسالات الله، فإن الإعلام جانب أساسي منها.

ولقد كانت واقعة الطف الرهيبة الفجيعة واحدةً من أعظم الإثارات الإعلامية. أَوَلَمْ يقل السبط الشهيد: أنا قتيل العبرة؟. أَوَلَمْ يتواتر عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فضلُ البكاء على الحسين عليه السلام وزيارة قبره، والدعاء تحت قبته؟.

وهذا الدور الإعلامي الذي كان الهدف من استشهاد الإمام الحسين عليه السلام اضطلع به الإمام زين العابدين عليه السلام، ومعه البقية العائدة من كربلاء، وبالذات عقيلة الهاشميين زينب الكبرى عليها السلام.

وبقي الإمام عليه السلام خمساً وثلاثين سنة قائماً بهذا الدور حتى رسَّخ في ضمير الأمة قواعدَ الإعلام الحسيني المبارك على النحو التالي:

ألف: كان أول وأعظم هدف لوسائل الإعلام الحسيني، إظهار الجانب المأساوي لواقعة الطف، لتبقى راسخةً في ضمير الأجيال المتصاعدة، ولتكون شعلةً مُتَّقِدةً في أفئدة المؤمنين، تستثير فيهم حوافز الخير والفضيلة، وتدعوهم إلى الاجتهاد والإيثار، وليقولوا على مدى

العصور: يا ليتنا كُنَّا معك فنفوز فوزاً عظيماً، وليكونوا أبداً جنود الحق المتفانين في سبيل الله لكيلا تتكرر فاجعة الطف مرة أخرى؛ أو ليكونوا -إذا وقعت- مشاركين فيها بسهم واقٍ، ومدافعين عن الحق بكل قواهم.

ومن هنا نجد الإمام زين العابدين عليه السلام واحداً من البكّائين الخمسة في عداد: آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد عليهما السلام.

لقد بقي باكياً بعد واقعة الطف ثلاثاً وثلاثين عاماً، ما وُضع أمامه طعام إلّا وخنقته العبرة، وقال: لقد قُتِلَ ابن بنت رسول الله جائعاً. فإذا جيء إليه بشراب انهالت دموعه فيه وقال: لقد قتل ابن بنت رسول الله عطشاناً. وإذا مرّ على جزّار استوقفه وسأله: هل سقى الشاة ماءً، ثم طفق يبكي ويقول: لقد قتلوا سبط رسول الله ظامئاً على شط الفرات.

وقد ضج لبكائه مواليه وأهل بيته. قَالَ لَهُ مَوْلًى لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ، قَالَ: **﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إِنِّي لَمْ أَذْكُرْ مَصْرَعَ بَنِي فَاطِمَةَ إِلَّا خَنَقَتْنِي لِذَلِكَ عَبْرَةٌ»**[1].

باء: ولم يكن البُكاء الرسالة الوحيدة التي حملها الإمام زين العابدين عليه السلام إلى التاريخ، فقد كانت رسالة الكلمة الثائرة هي المشكاة الصافية التي تشعُّ من خلالها رسالة الكلمة. فمنذ الأيام الأولى للحمة كربلاء عملت كلماتُ آل البيت عليهم السلام وفي طليعتهم الإمام السجاد والصديقة زينب الكبرى عليهما السلام في هدم جدار الصمت والتردد

(١) في رحاب أئمة أهل البيت، ج ٣، ص ٢٠٩.

والخوف، في الكوفة، وفي الشام، ثم في المدينة المنورة.

وحينما فرّق عامل يزيد (الأشدق) أهل البيت عليهم السلام في البلاد الإسلامية خشية انتفاضة أهل المدينة حسب بعض الروايات التاريخية، رُفِعَ لظُلامة الحسين عليه السلام في كل حاضرة منبرٌ وجهازٌ إعلاميٌّ مقتدر.

ومن أشهر خطب الإمام عليه السلام تلك الرائعة التي أوردها في مسجد الشام، والتي تحتوي على منهاج المنبر الحسيني الذي لو اتّبعناه، لكان أبلغ أثراً وأنفذ في أفئدة الناس. وها نحن نتدبر في مفردات هذا المنهج قبل أن نستوحي معاً نص الخطاب:

ألف: حدد الإمام أهداف المنبر؛ إذ قال للخاطب الذي سبقه إلى المنبر: «**اشْتَرَيْتَ مَرْضَاةَ المَخْلُوقِ بِسَخَطِ الخَالِقِ، فَتَبَوأْ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ**».. وتوجه إلى يزيد وقال له: «**يَا يَزِيدُ! ائْذَنْ لِي حَتَّى أَصْعَدَ هَذِهِ الأَعْوَادَ فَأَتَكَلَّمَ بِكَلِمَاتٍ للهِ فِيهِنَّ رِضاً وَلِهَؤُلاَءِ الجُلَسَاءِ فِيهِنَّ أَجْرٌ وَثَوَابٌ**»[1].

إذاً لابد أن تكون توجيهات الخطيب خالصة لوجه الله، وأن يبحث عما يُرضي الله، حتى وإن أسخط الطغاة، وأن ينطق بما ينفع الناس لا بما يضرهم.

باء: ثم بدأ الحديث بذكر الله سبحانه، وحذّر الناس عقابه، وذكّرهم بالموت والفناء، ولا أبلغ من الموت موعظةٌ ولا من الفناء رادعاً.

وجاء في بعض الروايات أن الناس قد أجهشوا بالبكاء عندما

(١) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣٧.

أكمل الإمام عليه السلام حديثه عن الآخرة، مما جعل قلوبهم خاشعة تستقبل ما بيَّنه بعدئذ من البصائر السياسية.

جيم: وبيّن الإمام عليه السلام خطه السياسي الأبلج الذي ينتهي إلى سيد المرسلين محمد وأهل بيته المعصومين (صلَّى الله عليه وعليهم اجمعين)، وأسهب في بيان صفاتهم التي هي المثل الأعلى في اليقين والاستقامة والجهاد.

دال: وأشهر الإمام عليه السلام ظُلامة السبط الشهيد، وحملها راية حمراء تدعو الضمائر الحرة إلى الجهاد من أجل الله وفي سبيل نصرة المظلومين. وهذه هي أشد محاور المنبر الحسيني: إثارةً للعواطف وتهييجاً لكوامن الحزن والأسى.

هاء: وبعد أن أمر يزيد بأن يقطع عليه المؤذن حديثه لم يترك الإمام عليه السلام المنبر كما كان معهوداً، وإنما استوقفه عند الشهادة الثانية وحمّل يزيد مسؤولية قتل والده، مما يعني -في لغة العصر- وضع النقاط على الحروف. فلا يكفي للخطيب الحسيني أن يشير من بعيد إلى الحقائق السياسية، بل لا بد أن يُصرّح بها بوضوح حتى يتبصر الناس وتتم الحجة عليهم.

وهكذا استطاع الإمام السجاد عليه السلام عبر هذا المنهاج الرائع أن يُزلزل عرش يزيد زلزالاً حتى تنصَّل من جريمته النكراء، وتوجه إلى الجماهير الغاضبة التي كادت تبتلعه قائلاً: أيها الناس، أتظنون أني قتلت الحسين، فلعن الله مَنْ قتله: عبيد الله بن زياد عاملي بالبصرة[1].

اما خطاب الإمام عليه السلام الذي ينبغي أن يُتخذ مثلاً للخُطَب

(١) في رحاب أئمة أهل البيت، ج ٣، ص ٢٠٩.

الحسينية، فهو التالي:

«أَيُّهَا النَّاسُ! أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَإِنَّهَا دَارُ زَوَالٍ، قَدْ أَفْنَتْ القُرُوْنَ المَاضِيَةَ، وَهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ مَالاً، وَأَطْوَلَ أَعْمَاراً. وَقَدْ أَكَلَ التُّرَابُ جُسُوْمَهُمْ، وَغَيَّرَ أَحْوَالَهُمْ. أَفَتَطْمَعُوْنَ بَعْدَهُمْ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، فَلَابُدَّ مِنَ اللُّحُوْقِ وَالمُلْتَقَى. فَتَدَبَّرُوْا مَا مَضَى مِنْ عُمُرِكُمْ وَمَا بَقِيَ، فَافْعَلُوْا فِيْهِ مَا سَوْفَ يَلْتَقِيْ عَلَيْكُمْ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ وَفُرُوْغِ الأَمَلِ، فَعَنْ قَرِيْبٍ تُؤْخَذُوْنَ مِنَ القُصُوْرِ إِلَى القُبُوْرِ، وَبِأَفْعَالِكُمْ تُحَاسَبُوْنَ. فَكَمْ -وَاللهِ- مِنْ فَاجِرٍ قَدْ اسْتَكْمَلَتْ عَلَيْهِ الحَسَرَاتُ!، وَكَمْ مِنْ عَزِيْزٍ قَدْ وَقَعَ فِيْ مَهَالِكِ الهَلَكَاتِ!، حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، وَلَا يُغَاثُ مَنْ ظَلَمَ، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾»[1].

قالوا: فضج الناس بالبكاء لبالغ أثر مواعظه في أنفسهم ثم قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ! أُعْطِينَا سِتًّا وَفُضِّلْنَا بِسَبْعٍ:

أُعْطِينَا الْعِلْمَ، وَالْحِلْمَ، وَالسَّمَاحَةَ، وَالْفَصَاحَةَ، وَالشَّجَاعَةَ، وَالمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ.

وَفُضِّلْنَا بِأَنَّ مِنَّا النَّبِيَّ المُخْتَارَ مُحَمَّداً، وَمِنَّا الصِّدِّيقُ، وَمِنَّا الطَّيَّارُ، وَمِنَّا أَسَدُ اللهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ، وَمِنَّا سِبْطَا هَذِهِ الأُمَّةِ.

مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي أَنْبَأْتُهُ بِحَسَبِي وَنَسَبِي.

أَيُّهَا النَّاسُ! أَنَا ابْنُ مَكَّةَ وَمِنَى، أَنَا ابْنُ زَمْزَمَ وَالصَّفَا، أَنَا ابْنُ مَنْ حَمَلَ الرُّكْنَ بِأَطْرَافِ الرِّدَا، أَنَا ابْنُ خَيْرِ مَنِ ائْتَزَرَ وَارْتَدَى، أَنَا ابْنُ خَيْرِ مَنِ انْتَعَلَ وَاحْتَفَى، أَنَا ابْنُ خَيْرِ مَنْ طَافَ وَسَعَى، أَنَا ابْنُ خَيْرِ مَنْ حَجَّ وَلَبَّى،

(١) بلاغة الإمام علي بن الحسين عليه السلام، ص٢٩.

أَنَا ابْنُ مَنْ حُمِلَ عَلَى الْبُرَاقِ فِي الهَوَاءِ، أَنَا ابْنُ مَنْ أُسْرِيَ بِهِ مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى، أَنَا ابْنُ مَنْ بَلَغَ بِهِ جَبْرَئِيلُ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، أَنَا ابْنُ مَنْ دَنَا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى، أَنَا ابْنُ مَنْ صَلَّى بِمَلائِكَةِ السَّماءِ، أَنَا ابْنُ مَنْ أَوْحَى إِلَيْهِ الجَلِيلُ مَا أَوْحَى، أَنَا ابْنُ مُحَمَّدٍ المُصْطَفَى، أَنَا ابْنُ عَلِيٍّ المُرْتَضَى، أَنَا ابْنُ مَنْ ضَرَبَ خَرَاطِيمَ الْخَلْقِ حَتَّى قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

أَنَا ابْنُ مَنْ ضَرَبَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ بِسَيْفَيْنِ، وَطَعَنَ بِرُمْحَيْنِ، وَهَاجَرَ الهِجْرَتَيْنِ، وَبَايَعَ الْبَيْعَتَيْنِ، وَقَاتَلَ بِبَدْرٍ وَحُنَيْنٍ، وَلَمْ يَكْفُرْ بِاللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

أَنَا ابْنُ صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَارِثِ النَّبِيِّينَ، وَقَامِعِ المُلْحِدِينَ، وَيَعْسُوبِ المُسْلِمِينَ، وَنُورِ المُجَاهِدِينَ، وَزَيْنِ الْعَابِدِينَ، وَتَاجِ الْبَكَّائِينَ، وَأَصْبَرِ الصَّابِرِينَ، وَأَفْضَلِ الْقَائِمِينَ مِنْ آلِ يَاسِينَ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَنَا ابْنُ المُؤَيَّدِ بِجَبْرَئِيلَ، المَنْصُورِ بِمِيكَائِيلَ، أَنَا ابْنُ المُحَامِي عَنْ حَرَمِ المُسْلِمِينَ، وَقَاتِلِ المَارِقِينَ وَالنَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ، وَالمُجَاهِدِ أَعْدَاءَهُ النَّاصِبِينَ، وَأَفْخَرِ مَنْ مَشَى مِنْ قُرَيْشٍ أَجْمَعِينَ، وَأَوَّلِ مَنْ أَجَابَ وَاسْتَجَابَ للهِ وَلِرَسُولِهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ، وَأَوَّلِ السَّابِقِينَ، وَقَاصِمِ المُعْتَدِينَ، وَمُبِيدِ المُشْرِكِينَ، وَسَهْمٍ مِنْ مَرَامِي اللهِ عَلَى المُنَافِقِينَ، وَلِسَانِ حِكْمَةِ الْعَابِدِينَ، وَنَاصِرِ دِينِ اللهِ، وَوَلِيِّ أَمْرِ اللهِ، وَبُسْتَانِ حِكْمَةِ اللهِ، وَعَيْبَةِ عِلْمِهِ.

سَمِحٌ، سَخِيٌّ، بَهِيٌّ، بُهْلُولٌ، زَكِيٌّ، أَبْطَحِيٌّ، رَضِيٌّ، مِقْدَامٌ، هُمَامٌ، صَابِرٌ، صَوَّامٌ، مُهَذَّبٌ، قَوَّامٌ، قَاطِعُ الأَصْلَابِ، وَمُفَرِّقُ الأَحْزَابِ، أَرْبَطُهُمْ عِنَاناً، وَأَثْبَتُهُمْ جَنَاناً، وَأَمْضَاهُمْ عَزِيمَةً، وَأَشَدُّهُمْ شَكِيمَةً، أَسَدٌ، بَاسِلٌ، يَطْحَنُهُمْ فِي الحُرُوبِ إِذَا ازْدَلَفَتِ الأَسِنَّةُ وَقَرُبَتِ الأَعِنَّةُ

طَحْنَ الرَّحَى، وَيَذْرُوهُمْ فِيهَا ذَرْوَ الرِّيحِ الهَشِيمِ، لَيْثُ الحِجَازِ، وَكَبْشُ الْعِرَاقِ، مَكِّيٌّ، مَدَنِيٌّ، خَيْفِيٌّ، عَقَبِيٌّ، بَدْرِيٌّ، أُحُدِيٌّ، شَجَرِيٌّ، مُهَاجِرِيٌّ، مِنَ الْعَرَبِ سَيِّدُهَا، وَمِنَ الْوَغَى لَيْثُهَا، وَارِثُ المَشْعَرَيْنِ، وَأَبُو السِّبْطَيْنِ: الحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، ذَاكَ جَدِّي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

ثُمَّ قَالَ: أَنَا ابْنُ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ أَنَا ابْنُ سَيِّدَةِ النِّسَاءِ...

فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ: أَنَا أَنَا؛ حَتَّى ضَجَّ النَّاسُ بِالْبُكَاءِ وَالنَّحِيبِ، وَخَشِيَ يَزِيدُ -لَعَنَهُ اللهُ- أَنْ يَكُونَ فِتْنَةٌ؛ فَأَمَرَ المُؤَذِّنَ فَقَطَعَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ، فَلَمَّا قَالَ المُؤَذِّنُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ؛ قَالَ عَلِيٌّ: لَا شَيْءَ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ. فَلَمَّا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ: شَهِدَ بِهَا شَعْرِي وَبَشَرِي وَلَحْمِي وَدَمِي. فَلَمَّا قَالَ المُؤَذِّنُ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ؛ الْتَفَتَ مِنْ فَوْقِ المِنْبَرِ إِلَى يَزِيدَ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ هَذَا جَدِّي أَمْ جَدُّكَ يَا يَزِيدُ؟ فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّهُ جَدُّكَ فَقَدْ كَذَبْتَ وَكَفَرْتَ، وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّهُ جَدِّي فَلِمَ قَتَلْتَ عِتْرَتَهُ؟ قَالَ: وَفَرَغَ المُؤَذِّنُ مِنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ، وَتَقَدَّمَ يَزِيدُ فَصَلَّى صَلَاةَ الظُّهْرِ»[1].

الدعاء مدرسة ومنبر:

لقد بعث الله تعالى إلينا رسالته، ترى كيف نستجيب له، ونرد إلى ربّنا الرحمن التحية؟.

نردُّها بالدعاء. فإنه منهج حديث العبد مع ربّه عزّ وجلّ، كما أن الوحي ذروة حديث الرب مع عباده.

والدعاء مُخُّ العبادة، ولباب التواصل، وجوهر الصلاة. وكل

(١) ناسخ التواريخ، ج ٢ في حياة الإمام زين العابدين ص ٢٤١.

دعاء حميد إلَّا أن الله تعالى أنعم علينا بأن هدانا لتَعَلُّم أدعية أوليائه، وبما أورثنا من أدعية النبيِّ وأهل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام. ويبدو أنها جميعاً أدعية تَوارثها عباد الله من الأنبياء، ومن ثم من الوحي الإلهي؛ أو لا أقل هي تجلِّيات الوحي على أفئدة الهداة من عباد الله المقرَّبين، وانعكاسٌ لمعارف الوحي على قلوبهم الزكية وألسنتهم الصادقة.

فالأدعية المأثورة -إذاً- هي الوجه الآخر للوحي، وهي ظلاله الوارفة، وأشعته المنيرة، وتفسيراته وتأويلاته.

وهكذا كانت الأدعية كنوز المعارف الربانية، وتِلاد الحِكَم التي لا تنفد، وفي طليعتها أدعية الصحيفة السجادية التي جمعت من كلمات الإمام زين العابدين عليه السلام.

فإلى ماذا كان يهدف الإمام من تلك الأدعية؟. لا ريب في أنها كانت شعاعاً من قلبه المنير بالإيمان، وفيضاً من فؤاده المُتَّقِد بحب الله، وكانت كلماتُها تتزاحم على شفاه رجلٍ كاد يذوب في هيام ربِّهِ، ولم تكن تَكَلُّفاً منه.

بلى، قد حققت أهدافاً عديدة أبرزها تعليم عباد الله كيف يدعون ربَّهم العظيم، وكيف يتضرعون إليه، ويتحببون إليه، ويلتمسون رضاه، يتعرفون على أسمائه الحسنى.. وكيف يطلبون منه حوائجهم، وماذا يطلبون؟.

وهذا الهدف الرباني تفرّع بدوره إلى عدة أمور حياتية يذكرها المؤرخون عادةً عند بيان حكمة الصحيفة السجادية، ونحن نشير إليها باختصار شديد.

ألف: أن الضغوط كانت بالغة الشدة في عهد الإمام السجّاد عليه السلام إلى درجة أن عقيلة الهاشميين زينب الكبرى عليها السلام أصبحت لفترة

وسيطةً في شؤون الإمامة بين الإمام والمؤمنين. وفي مثل تلك الظروف العصيبة كان من الطبيعي أن يَبُثَّ الإمام بصائر الوحي وقيم الرسالة عبر الأدعية التي مشت في الأمة ولا تزال كما يمشي الشذا عند نسيم عليل!!

باء: والإمام كثائر رباني لم يدع معارضة الطواغيت والوقوف بوجه الفساد الذي أوجدوه بسبب الظروف الصعبة، بل عارضهم بالأدعية التي لم تستطع أجهزة النظام برغم قوتها صد الإمام عنها.

وهكذا أتم الله سبحانه الحجة علينا، كيلا ندع الوقوف بوجه الطغاة بأية وسيلةٍ ممكنة، حتى في أشد العصور إرهاباً وقمعاً.

جيم: وكانت الأدعية -إلى ذلك- وسيلة تربية الناس على التقوى والفضيلة والإيثار والجهاد، وذلك بما تضمَّنت من مفاهيم متسامية، ومواعظ ربانية، فكان النخبة من أبناء الأمة يتغذون عليها كما يتغذى النبات الزاكي من أشعة الشمس. فإن حركات المعارضة تحتاج إلى زخم ثوري يدفع أبناءها قُدُماً في طريق المعارضة كالنشرات السرية والجلسات الخاصة، والشعارات والبيانات، فإن تلك الصحف المطهرة كانت غذاءً رساليًا لتلك النخبة المؤمنة في مواجهة النظام الأموي.

ولا تزال أدعية الإمام عليه السلام التي جمعت في الصحيفة السجادية، لا تزال هذه الأدعية ذلك الزخم الإيماني الذي يوفر لنا الروح الإيمانية في الأيام العصيبة. ولا أظن -بعد القرآن- أنَّ كتاباً يكون تسليةً لفؤاد المحرومين، وثورةً في دماء المستضعفين، ونوراً في أفئدة المجاهدين وهدى على طريق الثائرين كالصحيفة السجادية. فسلام الله على تلك النفس الزَّكيَّة التي فاضت بها، وسلام الله على من تبتَّل بها مع كل صباح ومساء.

الشعر منبر سيَّار:

تناغم الحياة ينعكس في ضمير الإنسان بحبك أوزان الشعر ومعانيه البديعة. وكانت العرب في الجاهلية وفي العصور الإسلامية الأولى، بالغة الاهتمام بالشعر. وقد مدح ربُّنا سبحانه في سورة الشعراء أولئك المؤمنين منهم الذين ينتصرون للمظلوم. وقد اهتم أئمة الهدى عليهم السلام بالشعر بوصفه منبراً سيّاراً يمشي بين الناس بانسياب. كما أن الطغاة بدورهم استخدموا الشعراء مطيةً لإعلامهم المضلّل. وقد قيل: إن الإمام زين العابدين عليه السلام نظم الشعر، وأشهر ما يُنقل عنه تلك الرائعة التي يقول فيها:

نَحْنُ بَنُو الْمُصْطَفَى ذَوُو غُصَصٍ   يَجْرَعُهَا فِي الْأَنَامِ كَاظِمُنَا
عَظِيمَةٌ فِي الْأَنَامِ مِحْنَتُنَا   أَوَّلُنَا مُبْتَلًى وَآخِرُنَا
يَفْرَحُ هَذَا الْوَرَى بِعِيدِهِم   وَنَحْنُ أَعْيَادُنَا مَآتِمُنَا
وَالنَّاسُ فِي الْأَمْنِ وَالسُّرُورِ وَمَا   يَأْمَنُ طُولَ الزَّمَانِ خَائِفُنَا
وَمَا خُصِصْنَا بِهِ مِنَ الشَّرَفِ   الطَّائِلِ بَيْنَ الْأَنَامِ آفَتُنَا
يَحْكُمُ فِينَا وَالْحُكْمُ فِيهِ لَنَا   جَاحِدُنَا حَقَّنَا وَغَاصِبُنَا[1]

ونسب إليه ابن شهراشوب في المناقب قوله:

لَكُمْ مَا تَدَّعُونَ بِغَيْرِ حَقٍّ   إِذَا مِيزَ الصِّحَاحُ مِنَ الْمِرَاضِ
عَرَفْتُمْ حَقَّنَا فَجَحَدْتُمُونَا   كَمَا عُرِفَ السَّوَادُ مِنَ الْبَيَاضِ
كِتَابُ اللهِ شَاهِدُنَا عَلَيْكُم   وَقَاضِينَا الْإِلَهُ فَنِعْمَ قَاضٍ[2]

أما تأييده للشعراء المدافعين عن الحق، فنعرفه من خلال قصة مع

(١) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣٨ - ١٣٩.
(٢) في رحاب أهل البيت، ج ٣، ص ٢٤٩.

الفرزدق الذي كان محسوباً على بلاط الأمويين، إلّا أنه كان ينتمي تاريخيًّا إلى البيت العلوي. فلما وجد فرصة فاضت قريحته بالرائعة المعروفة. فلما غضب عليه هشام بن عبد الملك والسلطة الأموية واعتقل، بادر الإمام بجائزته. وبقي إلى آخر حياته يعيش في ظل الإمامة الإسلامية حسبما يذكر بعض المؤرخين.

أما رائعته وقصتها فقد رواها السبكي في طبقات الشافعية بسند متصل إلى ابن عائشة عبد الله بن محمد عن أبيه، قال: «حَجَّ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ المَلِك، فَطَافَ بِالبَيْتِ فَجَهِدَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الحَجَرِ فَيَسْتَلِمُهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيه، فَنُصِبَ لَهُ مِنبَرٌ وَجَلَسَ عَلَيْهِ يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ وَمَعَهُ أَهْلُ الشَّام، إِذْ أَقْبَلَ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهاً وَأَطْيَبِهِم أَرَجاً، فَطَافَ بِالبَيْتِ، فَلَمَّا بَلَغَ الحَجَرَ تَنَحَّى لَهُ النَّاسُ حَتَّى يَسْتَلِمَه، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّام: مَنْ هَذَا الَّذِي قَدْ هَابَهُ النَّاسُ هَذِهِ الهَيْبَة؟. فَقَالَ: هِشَامٌ لا أَعْرِفُهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَرْغَبَ فِيهِ أَهْلُ الشَّام. وَكَانَ الفَرَزْدَقُ حَاضِراً فَقَالَ الفَرَزْدَقُ: وَلَكِنِّي أَعْرِفُهْ. فَقَالَ الشَّامِيُّ: مَنْ هُوَ يَا أَبَا فِرَاس؟. فَقَالَ الفَرَزْدَقُ (وقد توافقت روايتا سبط ابن الجوزي والسبكي إلّا في أبيات يسيرة، وهذا ما ذكراه):

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ كُلِّهِمْ ... هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا ... إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ

إِنْ عُدَّ أَهْلَ التُّقَى كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ قِيلَ هُمُ

هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللهِ قَدْ خُتِمُوا

وَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هَذَا بِضَائِرِهِ ... الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

يُنْمَى إِلَى ذِرْوَةِ العِزِّ الَّتِي قَصُرَتْ ... عَنْهَا الأَكُفُّ وَعَنْ إِدْرَاكِهَا القَدَمُ

مَنْ جَدُّه دَانَ فَضْلُ الأَنْبِيَاءِ لَهُ ... وَفَضْلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ لَهُ الأُمَمُ

يَنْشَقُّ نُوْرُ الهُدَى عَنْ صُبْحِ غُرَّتِهِ ... كَالشَّمْسِ تَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظُّلَمُ

مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ نَبْعَتُهُ ... طَابَتْ عَنَاصِرُهُ وَالْخِيمُ والشِّيَمُ

اللهُ شَرَّفَهُ قِدْماً وَفَضَّلَهُ ... جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوحِهِ القَلَمُ

كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا ... يَسْتَوكِفَانِ وَلَا يَعْرُوْهُمَا العَدَمُ

سَهْلُ الخَلِيْقَةِ لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ ... يَزِيْنُهُ اثْنَانِ: حُسْنُ الْخُلْقِ والكَرَمُ

حَمَّالُ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ إِذَا فُدِحُوا ... رَحْبُ الفِنَاءِ، أَرِيْبٌ حِيْنَ يَعْتَزِمُ

مَا قَالَ: لَا، قطُّ إِلَّا فِيْ تَشَهُّدِهِ ... لَولَا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لَاؤُهُ نَعَمُ

عَمَّ البَرِيَّةَ بِالإِحْسَانِ فَانْقَشَعَتْ ... عَنْهُ الغَيَابَةُ لَا هَلْقٌ وَلَا كَهَمُ

مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِيْنٌ، وبُغْضُهُم ... كُفْرٌ، وَقُرْبُهُمْ مَلْجاً وَمُعْتَصَمُ

لَا يَسْتَطِيْعُ جَوَادٌ بَعْدَ غَايَتِهِم ... وَلَا يُدَانِيْهِمُ قَوْمٌ وَإِنْ كَرُمُوا

هُمُ الْغُيُوثُ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزِمتْ ... وَالأُسْدُ أُسْدُ الشَّرَى وَالرَّأْيُ مُحْتَدِمُ

لَا يُنْقِصُ العُسْرُ بَسْطاً مِنْ أَكُفِّهِم ... سِيَّانِ ذَلِكَ إِنْ أَثْرَوْا وَإِنْ عُدِمُوا

يُسْتَدْفَعُ السُّوْءُ وَالبَلْوَى بِحُبِّهِمْ ... وَيُسْتَرَبُّ بِهِ الإِحْسَانُ وَالنِّعَمُ

مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللهِ ذِكْرُهُمُ ... فِي كُلِّ بَدْءٍ، ومَخْتُومٌ بِهِ الْكَلِمُ

يَأْبَى لَهُمْ أَنْ يَحُلَّ الذَّمُّ سَاحَتَهُم ... خِيمٌ كَرِيْمٌ، وَأَيْدٍ بِالنَّدَى هُضُمُ

أَيُّ الخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمُ ... لأَوَّلِيَّةِ هَذَا أَوَّلُهُ نَعَمُ

مَنْ يَعْرِفِ اللهَ يَعْرِفْ أَوَّلِيَّةَ ذا ... فَالدِّيْنُ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الأُمَمُ

هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فغضب هشام وأمر بحبس الفرزدق بعسفان بين مكة والمدينة، فبعث إليه علي بألف

دينار فردَّها وقال: إنما قلت ما قُلْت غَضباً لله وَلِرَسُولِه، فما آخذ عليه أجراً. فقال علي: «**نَحْنُ أَهْلُ بَيْتٍ لا يَعُوْدُ إِلَيْنَا مَا أَعْطَيْنَا**»، فقبلها الفرزدق وهجا هشاماً فقال:

أَيَحْبِسُنِي بَيْنَ المَدِينَةِ وَالَّتِي ... إليها قلوبُ الناس يَهوي مُنِيبُها
يُقَلِّبُ رأساً لم يكن رأسَ سَيِّدٍ ... وعَيناً له حولاءَ بادٍ عُيوبُها

فأُخبر هشامُ بذلك فأطلقه. ولكنه قطع راتبه من الديوان، وكان ألف دينار سنويًّا، فاشتكى إلى الإمام فأعطاه أربعين ألف دينار وقال له: «**لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هَذَا لَأَعْطَيْتُكَ**»[1]. فعاش الفرزدق أربعين عاماً ثم مات رحمه الله تعالى.

رسالة الحقوق:

يبحث بعض الناس عن الدرجات العلى في الإيمان، ويتساءلون: كيف نجتهد حتى نصبح مؤمنين حق الإيمان؟. لمثل هؤلاء كتب الإمام زين العابدين عليه السلام رسالة الحقوق التي تشرح واجبات المؤمن ومسؤولياته تجاه الخالق والناس، وتحدِّد -بالتالي- طبيعة العلاقة القائمة على أسسٍ متوازنةٍ وعادلةٍ، وقد استهلّت الرسالة بما يلي:

«**اعْلَمْ -رَحِمَكَ الله- أَنَّ للهِ عَلَيْكَ حُقُوقاً مُحِيطَةً بِكَ، فَبِكُلِّ حَرَكَةٍ حَرَّكْتَهَا، أَوْ سَكَنَةٍ سَكَنْتَهَا، أَوْ مَنْزِلَةٍ نَزَلْتَهَا، أَوْ جَارِحَةٍ قَلَبْتَهَا، أَوْ آلَةٍ تَصَرَّفْتَ بِهَا؛ بَعْضُهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ. وَأَكْبَرُ حُقُوقِ اللهِ عَلَيْكَ مَا أَوْجَبَهُ لِنَفْسِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ حَقِّهِ، الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْحُقُوقِ، وَمِنْهُ تَفَرَّعَ ثُمَّ أَوْجَبَهُ عَلَيْكَ لِنَفْسِكَ مِنْ قَرْنِكَ إِلَى قَدَمِكَ عَلَى اخْتِلَافِ جَوَارِحِكَ، فَجَعَلَ**

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص١٤١.

لِبَصَرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِسَمْعِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِلِسَانِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِيَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرِجْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِبَطْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِفَرْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَهَذِهِ الْجَوَارِحُ السَّبْعُ الَّتِي بِهَا تَكُونُ الْأَفْعَالُ. ثُمَّ جَعَلَ عَزَّ وَجَلَّ لِأَفْعَالِكَ عَلَيْكَ حُقُوقاً، فَجَعَلَ لِصَلَاتِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِصَوْمِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِصَدَقَتِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِهَدْيِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَفْعَالِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. ثُمَّ تَخْرُجُ الْحُقُوقُ مِنْكَ إِلَى غَيْرِكَ مِنْ ذَوِي الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْكَ، وَأَوْجَبُهَا عَلَيْكَ حَقُّ أَئِمَّتِكَ، ثُمَّ حُقُوقُ رَعِيَّتِكَ، ثُمَّ حُقُوقُ رَحِمِكَ»[1].

ويستمر الإمام عليه السلام في بيان هذه الحقوق وفروعها، ويُبيِّن من خلالها العلاقة المُثلى بين الإنسان وبين الخلق والخالق. وسوف نستوحي من دراسة رسالة الحقوق البصائر التالية:

أولاً: إن حديث الإمام عليه السلام كان موجهاً للصفوة من أهل الإيمان، الذين نشروا الكمال وسعوا إليه سعيه، لذلك تجد الحقوق المذكورة في هذه الرسالة تجمع بين الحقوق الواجبة والأخرى المندوبة. بل إن أكثرها من النوع الثاني.

ثانياً: إن هذه الرسالة وأمثالها مما نجده عند أئمة أهل البيت عليهم السلام في صيغة رسائل أو وصايا مفصَّلة، والتي جمعها العالم الكبير الحسن بن علي بن شعبة الحلبي في كتابه الفذ (تحف العقول)؛ كانت بمثابة دروس مركَّزة في التربية الرسالية توارثها الصالحون من أولياء أهل البيت عليهم السلام بهدف بناء القدوات المثلى والطليعة المتميزة من أبنائهم ليكونوا شهداء على الناس.

وما أحوجنا -نحن المسلمين اليوم- إلى العودة إليها في مناهج

(١) في رحاب أئمة أهل البيت، ج ٣، ص ٢١٦.

التربية، وبالذات في الحوزات العلمية التي هي الامتداد الرسالي لخط أهل البيت النبوي عليهم السلام.

ثالثاً: إن هذه الرسالة تحافظ على توازن الشخصية الإيمانية وتصونها من التطرف نحو جانب من الشريعة وإهمال سائر الجوانب؛ فلابد أن تتسع صدورنا لكافة أبعاد الشريعة، وضمن برامج محددة نجدها في مثل رسالة الحقوق.

وكلمة أخيرة: إن هذه الرسالة تعكس البصيرة القرآنية ذات الشمول والعمق والدقة التي تتناسب ومقام الإمامة لسيد الساجدين عليه السلام، والتي يعجز عن مثلها أي فقيه أو عالم إن لم يكن متصلاً برافد الرسالة الذي لا ينضب. فسلام الله على من أرسلها، وبارك الله لمن استجاب لها.

كراماته وشهادته:

استفاضت كتب الأثر بالحديث القدسي الذي ينطق عن ربّ العزة بالقول: «**عَبْدِيْ أَطِعْنِي تَكُنْ مِثْلِي (أَوْ مَثَلِي) أَقُوْلُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُوْن وَتَقُوْلَ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُوْن**».

وكتاب الله العزيز حافل بأمثلة واقعية من تاريخ الأنبياء والصالحين الذين استجاب الله دعاءهم بما أعجز الناس. أَلَيْسَ طوفان نوح وسفينته، ونيران إبراهيم التي جعلها الله تعالى برداً وسلاماً، وعصا موسى التي ألقاها فجعلها الله ثعباناً مبيناً، وحديث عيسى في المهد صبيًّا، واستجابة دعاء إبراهيم ثم زكريا حينما رزقهما الله أولاداً وقد بلغا من الكبر عتيًّا. أليس كل ذلك من كرامة الله لأوليائه المخلصين؟. فلماذا يصعب على البعض تصديق كرامات أولياء الله الآخرين، كما يُصَدِّقُون بكرامات

أولياء الله السابقين؟. أوَلَيسَ الحديث النبوي الشريف يقول: «**عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيل**»[1]؟. فكيف تصدق المعجزة على عهد بني إسرائيل بنص القرآن، ولا تأتي الكرامة على يد أهل بيت الرسول ﷺ؟.

وهذا علي بن الحسين عليه السلام، الذي قرأنا معاً بعض صفاته، أَيَعِزُّ على الله سبحانه أن يُجري على يدَيه الكرامات؟ ومَن أولى بها ممن كان على مثل تلك الصفات، قوَّامَ الليل، صوَّام النهار، بكّاءً، سجّاداً، إلخ...

ونحن إذ نقتطف من تاريخه عليه السلام نزراً يسيراً من كراماته، فلكي نزداد يقيناً بأن ربَّنا سبحانه يستجيب دعوة المخلصين من عباده الذين جأروا إليه بكل كيانهم وأبعاد وجودهم. ثم نزداد للأئمة من أهل البيت عليهم السلام حبّاً، فإن حُبَّهم نجاةٌ من النار ووسيلةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

١- من كراماته عليه السلام، أن الله ألهمه من علمه عبر رؤياً شاهد فيها رسول الله ﷺ، ما أظهر كرامته وفضله. والقصة كما يلي:

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«**لَمَّا وُلِّيَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الخِلَافَةَ كَتَبَ إِلَى الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ:**

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مِنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ إِلَى الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُف.

أَمَّا بَعْدُ: فَانْظُرْ دِمَاءَ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ فَاحْقُنْهَا وَاجْتَنِبْهَا فَإِنِّي رَأَيْتُ آلَ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا وَلَغُوا فِيهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلًا وَالسَّلَامُ. قَالَ: وَبَعَثَ بِالكِتَابِ سِرًّا.

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٢٢.

وَوَرَدَ الخَبَرُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ عليه السلام سَاعَةَ كَتَبَ الْكِتَابَ وَبَعَثَ بِهِ إِلَى الحَجَّاجِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ عَبْدَ المَلِكِ قَدْ كَتَبَ إِلَى الحَجَّاجِ كَذَا وَكَذَا، وَإِنَّ اللهَ قَدْ شَكَرَ لَهُ ذَلِكَ وَثَبَّتَ مُلْكَهُ وَزَادَهُ بُرْهَةً.

قَالَ: فَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ عليه السلام:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِلَى عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ.

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ كَتَبْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا مِنْ سَاعَةِ كَذَا وَكَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَكَذَا بِكَذَا وَكَذَا، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله أَنْبَأَنِي وَخَبَّرَنِي، وَإِنَّ اللهَ قَدْ شَكَرَ لَكَ ذَلِكَ وَثَبَّتَ مُلْكَكَ وَزَادَكَ فِيهِ بُرْهَةً.

وَطَوَى الْكِتَابَ وَخَتَمَهُ وَأَرْسَلَ بِهِ مَعَ غُلَامٍ لَهُ عَلَى بَعِيرِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَى عَبْدِ المَلِكِ سَاعَةَ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمَ الغُلَامُ أَوْصَلَ الْكِتَابَ إِلَى عَبْدِ المَلِكِ، فَلَمَّا نَظَرَ فِي تَارِيخِ الْكِتَابِ وَجَدَهُ مُوَافِقاً لِتِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي كَتَبَ فِيهَا إِلَى الحَجَّاجِ، فَلَمْ يَشُكَّ فِي صِدْقِ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ عليه السلام، وَفَرِحَ فَرَحاً شَدِيداً، وَبَعَثَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ عليه السلام بِوِقْرِ رَاحِلَتِهِ دَرَاهِمَ ثَوَاباً لِمَا سَرَّهُ مِنَ الْكِتَابِ»[1].

٢- وكذلك قصته مع أبي خالد الكابلي، ويرويها الإمام الباقر عليه السلام على النحو التالي:

«كَانَ أَبُو خَالِدٍ الكَابُلِيُّ يَخْدُمُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ دَهْراً (وهو ابن الإمام علي، وعم الإمام السجاد عليه السلام). وَمَا كَانَ يَشُكُّ فِي أَنَّهُ إِمَامٌ حَتَّى أَتَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ! إِنَّ لِي حُرْمَةً وَمَوَدَّةً وَانْقِطَاعاً فَأَسْأَلُكَ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٤٤.

بِحُرْمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إِلَّا أَخْبَرْتَنِي أَنْتَ الإِمَامُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ طَاعَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ؟! قَالَ: فَقَالَ: يَا أَبَا خَالِدٍ! حَلَّفْتَنِي بِالْعَظِيمِ، الإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام عَلَيَّ وَعَلَيْكَ وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. فَأَقْبَلَ أَبُو خَالِدٍ لَمَّا أَنْ سَمِعَ مَا قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ، وَجَاءَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ أُخْبِرَ أَنَّ أَبَا خَالِدٍ بِالْبَابِ فَأَذِنَ لَهُ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَدَنَا مِنْهُ قَالَ: **مَرْحَباً يَا كَنْكَرُ، مَا كُنْتَ لَنَا بِزَائِرٍ مَا بَدَا لَكَ فِينَا؟**.

فَخَرَّ أَبُو خَالِدٍ سَاجِداً شَاكِراً للهِ تَعَالَى مِمَّا سَمِعَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى عَرَفْتُ إِمَامِي.

فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ عليه السلام: **وَكَيْفَ عَرَفْتَ إِمَامَكَ يَا أَبَا خَالِدٍ؟**.

قَالَ: إِنَّكَ دَعَوْتَنِي بِاسْمِي الَّذِي سَمَّتْنِي بِهِ أُمِّيَ الَّتِي وَلَدَتْنِي، وَقَدْ كُنْتُ فِي عَمْيَاءَ مِنْ أَمْرِي، وَلَقَدْ خَدَمْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ عُمْراً مِنْ عُمُرِي، وَلَا أَشُكُّ أَنَّهُ إِمَامٌ حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيباً سَأَلْتُهُ بِحُرْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَحُرْمَةِ رَسُولِهِ ﷺ وَبِحُرْمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَأَرْشَدَنِي إِلَيْكَ، وَقَالَ: هُوَ الإِمَامُ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ وَعَلَى جَمِيعِ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمْ، ثُمَّ أَذِنْتَ لِي فَجِئْتُ فَدَنَوْتُ مِنْكَ وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِي الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ الإِمَامُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ طَاعَتَهُ عَلَيَّ وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[1].

٣- ويذكر الشيخ الطوسي القصة التالية أيضاً:

«قَالَ خَرَجَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام إِلَى مَكَّةَ حَاجّاً حَتَّى انْتَهَى إِلَى وَادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ، قَالَ:

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٤٦.

فَقَالَ: لِعَلِيٍّ انْزِل.

قَالَ: تُرِيدُ مَاذَا؟.

قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَكَ وَآخُذَ مَا مَعَكَ.

فقَالَ: **فَأَنَا أُقَاسِمُكَ مَا مَعِي وَأُحَلِّلُكَ.**

قَالَ: فَقَالَ اللِّصُّ: لَا.

قَالَ: **فَدَعْ مَعِي مَا أَتَبَلَّغُ بِهِ.**

فَأَبَى.

قَالَ: **فَأَيْنَ رَبُّكَ؟.**

قَالَ: نَائِمٌ.

قَالَ: فَإِذَا أَسَدَانِ مُقْبِلَانِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَخَذَ هَذَا بِرَأْسِهِ وَهَذَا بِرِجْلَيْهِ.

قَالَ: **زَعَمْتَ أَنَّ رَبَّكَ عَنْكَ نَائِمٌ**»[1].

٤- ومن كراماته عليه السلام، ما ظهر عند وفاته. فلقد تُوُفِّيَ الإمام بعد أن دَسَّ إليه الأمويون السم في عام (٩٤) في شهر محرم في اليوم الخامس والعشرين، وقيل: في اليوم الثامن عشر. وفي تلك السنة تُوُفِّيَ طائفة من الفقهاء حتى سُمِّيَتْ سنة الفقهاء. ولست استبعد أن يكون النظام الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك قد دَسَّ السُّمَّ إلى المعارضين وفيهم كبار الفقهاء من أمثال سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وسعيد بن

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٤١.

جبير. وجاء في التواريخ أنه تُوُفِّيَ في تلك السنة عامة فقهاء المدينة[1].

وهل يعقل أن يموت كل الفقهاء في سنة واحدة صُدفةً، علماً بأن المعروف أن الإمام السجاد عليه السلام استشهد متأثراً بالسُّمِّ الذي دَسَّه إليه عبد الملك بن مروان في ظروف غامضة.

وكيفما كان الأمر فقد ظهرت عند وفاته كرامات منه عليه السلام، فقد أُغْمِيَ عَلَيْهِ فَبَقِيَ سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُ الثَّوْبَ ثُمَّ قَالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَوْرَثَنَا الجَنَّةَ نَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ»، ثُمَّ قَالَ: «احْفِرُوا لِي وَابْلُغُوا إِلَى الرسخ [الرَّشْحِ] (الثابت من الأرض) ثُمَّ مَدَّ الثَّوْبَ عَلَيْهِ فَمَاتَ»[2].

وظهرت بعد وفاته الكرامة التي ينقلها سعيد بن المسيّب، وبها نختم هذه الصفحات المشرقة من حياة الإمام زين العابدين عليه السلام.

فقد رُوِيَ عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَعَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ مُعَمَّرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:

قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: إِنَّكَ أَخْبَرْتَنِي أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ، وَأَنَّكَ لَا تَعْرِفُ لَهُ نَظِيراً؟.

قَالَ: كَذَلِكَ وَمَا هُوَ مَجْهُولٌ مَا أَقُولُ فِيهِ وَاللهِ مَا رُئِيَ مِثْلُهُ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ: فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ الْحُجَّةُ الْوَكِيدَةُ عَلَيْكَ يَا سَعِيدُ، فَلِمَ لَمْ تُصَلِّ عَلَى جِنَازَتِهِ؟.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٥٤، نقلًا عن تذكرة الخواص، ص ١٨٧ (طبعة إيران) وعن تاريخ ابن عساكر.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٥٣.

فَقَالَ: إِنَّ الْقُرَّاءَ كَانُوا لَا يَخْرُجُونَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى يَخْرُجَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا مَعَهُ أَلْفَ رَاكِبٍ، فَلَمَّا صِرْنَا بِالسُّقْيَا نَزَلَ فَصَلَّى وَسَجَدَ سَجْدَةَ الشُّكْرِ.

وَفِي رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ:

كَانَ الْقَوْمُ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى يَخْرُجَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ سَيِّدُ الْعَابِدِينَ، فَخَرَجَ عليه السلام فَخَرَجْتُ مَعَهُ فَنَزَلَ فِي بَعْضِ الْمَنَازِلِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَسَبَّحَ فِي سُجُودِهِ، فَلَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلَا مَدَرٌ إِلَّا سَبَّحُوا مَعَهُ فَفَزِعْنَا.

فَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: يَا سَعِيدُ أَفَزِعْتَ؟

فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ.

فَقَالَ: هَذَا التَّسْبِيحُ الْأَعْظَمُ. حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: لَا تَبْقَى الذُّنُوبُ مَعَ هَذَا التَّسْبِيحِ. فَقُلْتُ: عَلِّمْنَا.

وَفِي رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ: سَبَّحَ فِي سُجُودِهِ فَلَمْ يَبْقَ حَوْلَهُ شَجَرَةٌ وَلَا مَدَرَةٌ إِلَّا سَبَّحَتْ بِتَسْبِيحِهِ، فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْحَابِي.

ثُمَّ قَالَ: يَا سَعِيدُ! إِنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَمَّا خَلَقَ جَبْرَئِيلَ أَلْهَمَهُ هَذَا التَّسْبِيحَ فَسَبَّحَتِ السَّمَاوَاتُ وَمَنْ فِيهِنَّ لِتَسْبِيحِهِ الْأَعْظَمِ، وَهُوَ اسْمُ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ الْأَكْبَرُ.

يَا سَعِيدُ! أَخْبَرَنِي أَبِي الْحُسَيْنُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله عَنْ جَبْرَئِيلَ عَنِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ قَالَ:

«مَا مِنْ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي آمَنَ بِي، وَصَدَّقَ بِكَ، وَصَلَّى فِي مَسْجِدِكَ

رَكْعَتَيْنِ عَلَى خَلَاءٍ مِنَ النَّاسِ؛ إِلَّا غَفَرْتُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ».

فَلَمْ أَرَ شَاهِداً أَفْضَلَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام حَيْثُ حَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ، فَلَمَّا أَنْ مَاتَ شَهِدَ جَنَازَتَهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ وَانْهَالَ [النَّاسُ] يَتْبَعُونَهُ حَتَّى وُضِعَتِ الْجِنَازَةُ، فَقُلْتُ: إِنْ أَدْرَكْتُ الرَّكْعَتَيْنِ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ فَالْيَوْمُ هُوَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ ثُمَّ خَرَجَا إِلَى الْجِنَازَةِ، وَثَبْتُّ لِأُصَلِّيَ فَجَاءَ تَكْبِيرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَجَابَهُ تَكْبِيرٌ مِنَ الْأَرْضِ وَأَجَابَهُ تَكْبِيرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَجَابَهُ تَكْبِيرٌ مِنَ الْأَرْضِ، فَفَزِعْتُ وَسَقَطْتُ عَلَى وَجْهِي، فَكَبَّرَ مَنْ فِي السَّمَاءِ سَبْعاً وَمَنْ فِي الْأَرْضِ سَبْعاً وَصَلَّى عَلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، وَدَخَلَ النَّاسُ الْمَسْجِدَ فَلَمْ أُدْرِكِ الرَّكْعَتَيْنِ وَلَا الصَّلَاةَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فَقُلْتُ: يَا سَعِيدُ! لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أَخْتَرْ إِلَّا الصَّلَاةَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، إِنَّ هَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، فَبَكَى سَعِيدٌ ثُمَّ قَالَ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا الْخَيْرَ، لَيْتَنِي كُنْتُ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَا رُئِيَ مِثْلُهُ»[1].

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص١٤٩ - ١٥٠.

المحتويات